

العرب والإسلام

دراسة في سمات الشخصية العربية

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

٢٧ ش أثر النبي – مصر القديمة – القاهرة

٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ – ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني yuness2005@hotmail.com

محمد يونس هاشم

العرب والإسلام

دراسة في سمات الشخصية العربية



١٢٧ ش أثر النبي – مصر القديمة ـ القاهرة
ت: ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٩٠٦٩٣٤٨
دار زهور المعرفة والبركة للنشر والتوزيع

المقدمة

من هؤلاء القوم الذين وُصِفُوا بالجاهليين ، وبأنهم أصحاب عقائد فاسدة، وعادات قبيحة ، وأخلاق مذمومة ، هؤلاء القوم الذين تفشَّت فيهم عبادة الأوثان والأصنام ، ووأد البنات ، وشرب الخمر ، وإشعال الحروب على أتفه الأسباب ، ونصرة الأخ ظالماً ومظلوماً ، والتعصب للقبيلة ، والكبر والتكبر ، والمفاخرة بالأنساب والأحساب ، والسلب والنهب ، والإغارة على الآمنين ، واحتقار العمل ...

وبرغم تلك الصفات التي اتسم بها هؤلاء القوم إلا أن حكمة الله تعالى قضت أن يجعل خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله العالمين منهم ، وأن يحمل هؤلاء القوم هذه الرسالة الخاتمة لينشروها في الآفاق وينافحوا عنها ويدخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجاً ، وتصير كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فترى لماذا اصطفى الله تعالى العرب دون سائر الأمم يبعث منهم رسول آخر الزمان ؟ ولماذا اصطفى من العرب كنانة ؟ ولماذا اصطفى من كنانة مناف ؟ واصطفى من كنانة قريشاً ؟ واصطفى من قريش بني هاشم ؟ واصطفى محمداً ﷺ من بني هاشم ؟

وهذا الكتاب يبحث في الشخصية العربية قبل الإسلام وبعده ..

يبحث في حياة العرب الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية ، والثقافية ..

يبحث في سمات العرب السلبية ، والإيجابية ..

يبحث في أنواع العرب ودور كل نوع في خدمة الإسلام ..

ويحاول أن يجيب عن هذه الأسئلة :

من هم العرب ؟

ما الفرق بين العرب : العَاربة ، والمُسْتَعْرِبة ، المُسْتَعْجَمَة ؟

ما الفرق بين العربي والأعرابي ؟

ما الجاهلية لغة واصطلاحاً ؟

وما أهم سمات العرب الخلقية : الإيجابية والسلبية ؟

كيف كانت حياتهم : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية قبل الإسلام ؟

ولماذا اصطفى الله تعالى آخر أنبياءه ورسله من العرب ؟ رغم أن هناك أمماً ومالك أكثر من العرب علماً وحضارة ؟

لماذا رفض سادة قريش الإسلام في البداية وحاربوه ؟

كيف دخل العرب في دين الله أفواجاً ؟

ما الأخلاق التي حاربها الإسلام في العرب ؟ والأخلاق التي أبقى عليها؟

ما دور العرب في خدمة الإسلام ؟

من صنع حضارة الإسلام ؟ وما دور العرب فيها ؟

يحاول هذا الكتاب أن يجب عن هذه الأسئلة وغيرها

***

العرب قبل الإسلام

من هم العرب وأقسامهم

يعرف المعجم الوسيط العرب فيقول : " العَرَب : أُمة من الناس سامية الأصل ، كان منشؤها شبهَ جزيرة العرب . والجمع : أَعْرُبٌ والنسبُ إليه عَرَبِيٌّ " .

ويقسم معظم المؤرخين العرب إلى أقسام ثلاثة :

العرب البائدة : قوم عاد ، وقوم ثمود ، وهم أول من تحدَّث العربية ، وسموا بالبائدة لان الله تعالى قد أبادهم لما كفروا به وكذبوا رسله وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٤- ٨]

يقول ابن كثير في تفسير ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ ؟ أي : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً " .

والمؤرخين يلحقون بالعرب البائدة قبائل : طَسْمٍ ، وجَدِيس ، وجُرْهُم وغيرها ، وهذه القبائل لم تهلك بالطاغية ولا الريح الصرر العاتية كقوم

عاد وثمود إنما بادت كما يقول المؤرخون بفعل عوامل كثيرة منها العوامل الطّبيعية مثل البراكين وغيرها .

أمّا القسم الثاني من العرب فهم العرب العارِبة : وهم الصُّرحاءُ الخُلَّص الذين تكلَّموا بلسان يعرُب بن قحْطان الذين سكنوا الجزيرة العربيّة وبلاد اليمن، وأقاموا مملكة حمير وسبأ .

والقسم الثالث من العرب هم المُسْتَعْرِبة ، أي الذين اكتسبوا العربية من مخالطتهم للعرب العاربة، ومنهم إسماعيل عليه السّلام الذي خالط قبيلة جُرْهُم العربية الأصيلة فتعلَّم منهم العربيّة وكلمة اسْتعْرَبَ في اللغة معناها : صَارَ دخيلاً في العرب ، وجعل نفسَه منهم .

ولابن خلدون تقسيم آخر للعرب سوف نتعرض فيما بعد ، ونحن لا يعنينا من العرب في هذا الكتاب إلا الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية بنحو قرنين من الزمان .. الذين يُطْلَق عليهم العرب الجاهليون .

العرب والجاهلية

للجاهلية معنيان : معنى لغوي نسبة للجهل الذي هو ضد الحِلْم وعلى هذا فالجاهلية تعني الطيش والسفه والحمق والتهور والحمية والقسوة والغلظة .

والمعنى اللغوي الثاني هو الجهل الذي هو ضد العلم والمعرفة .

وإذا بحثنا عن معنى كلمة جاهلية في أشعار العرب القدماء فإنها تعني المعنى الأول الذي هو ضد الحلم لا الجهل الذي هو ضد العلم .

يقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أي لا يشتد علينا أحد ولا يخطئ في حقنا حتى لا نعاقبه بأشد مما يريد فعله بنا .

ويقول الفرزدق:

أحلامُنا تَزِن الجبالَ رزانةً   وتَخالُنا جنّاً إذا ما نجهل

وهكذا ربط العرب بين الجهل والحلم في شواهد كثيرة .

أما معنى الجاهلية الاصطلاحي فيطلق على حال الأمم قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً مع حالها بعد البعثة النبوية وظهور الإسلام. فقد كان الجاهليون أصحاب عقائد فاسدة وعادات قبيحة وأخلاق مذمومة جاء الإسلام ليحاربها ويقضي عليها ، فقد تفشت فيهم عبادة الأوثان والأصنام ، ووأد البنات ، وشرب الخمر ، وإشعال الحروب على أتفه الأسباب ، ونصرة الأخ ظالماً ومظلوماً ، والتعصب للقبيلة ، والكبر والتكبر و....

وممّا يزيد هذا التصور وضوحاً قول النبي لأبي ذَرّ الغِفاري وقد عيَّر رجلاً بأمّه: " إنّك امرؤ فيك جاهليّة»، وفُسِّر مدلول الجاهلية بأنه الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله، وشرائع الدين والمفاخرة بالإنسان والكِبْر والتجبّر وغير ذلك .

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع لعل أهما الخمر واستباحة النساء والقمار ، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان ، وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها وقد شدد في عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهي عن

الخمر والميسر ... وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بالثأر ، فهدمه هدما وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد .

بدو العرب

البدو هم سكان البادية الرعاة الرُّحَّل من العرب الذين يسكنون الخيام ويعيشون على رعي الإبل والماشية ويتنقلون من مكان لآخر طلباً للماء والكلأ .

يعيش البدو على الرعي بشكل أساسي، وكذلك تربية الإبل والأنعام وتجارتها ، والبدو منتشرون في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربيَّة والصحراء السورية وغرب العراق وسيناء والنقب والأردن وفلسطين المحتلة وفي الصحراء الشرقيَّة والصحراء الغربيَّة من شمال أفريقيا .والحياة في الصحراء تتيح للبدو ممارسة نمط حياتهم التقليدي بعيداً عن مؤثرات التمدن .

والبدو لا يتقيَّدون – غالباً – بحدود جغرافيَّة ، فحيثما يوجد الماء والكلأ يشدُّون الرحال إليه في قوافل جماعيَّة أو فرديَّة. ووسيلة النقل لديهم سفينة الصحراء الإبل .تنفذ هذه الرحلات بتحديد موعد مسبق مع الجيران أو تأتي مفاجأة لأصحاب المنزل الواحد أو عدة منازل حسب الاتفاق الذي يتم بينهم .

في هذه الرحلات يكابد البدو الكثير من المصاعب والمتاعب، لأنهم أحياناً يقطعون مسافات بعيدة مشياً على الأقدام .وتُحْمَل الأمتعة الأثقال وأفراد القبيلة غير القادرين على السير على ظهور الإبل، وتكون بداية

الرحيل أو الظعن وقت الصباح، والملتقى بين أفراد الأسرة الواحدة وقت المبيت في مكان ضرب موعده سابقاً. وهكذا يكون تخطيط سير الرحلة حتى يصلوا المكان المقرَّر للسكن وفيه يضعون رحالهم لفترة تطول أو تقصر غير محددة بمدة زمنية معلومة. وهكذا تستمر حياتهم في تنقل وترحال دائمين، كما أنهم ينتقَّلون في فصل الشتاء إلى الأماكن التي تتوفر بها الأشجار بكثرة وقاية وحماية لهم ولحيواناتهم من نزلات البرد الشديد وتقلبات الرياح القارسة. أما في فصل الصيف فيرحلون إلى الأماكن التي يتواجد فيها الظل والماء .

والمصريون سكان الوادي والدلتا حضريون وليسوا بدواً على الأقل منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وإن كان هناك بدو عاشوا في سيناء والصحراء الشرقيَّة والغربيَّة أو على هامش المدن لكن نسبة ضئيلة لا تذكر كما أن معظمهم من القبائل الساميَّة .

الفرق بين العرب و الأعراب (البدو)

الأعراب أو البدو هم سكان الصحراء يعيشون على رعي الأنعام :

الإبل والبقر والضأن والمعز ، يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون : ٢١، ٢٢] ويركبون ظهورها ، وتحمل عنهم أمتعتهم ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾[النحل:٧]

ومن جلودها يصنعون بيوتهم ، ومن أصوافها ومن أوبارها وأشعارها يصنعون أثاث بيوتهم ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن

جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل : ٨٠]

أما العرب فهم سكان المدن كاليمن ، مكة ، الطائف ، يثرب ، واليمامة ... وكانوا يعتمدون في حياتهم على التجارة ، وبعض الحرف اليسيرة ، والزراعة وهم أرقُّ طَبْعاً من الأعراب (البدو) .

وقد اتخذ الرومان وخلفاؤهم من البيزنطيين من العرب الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين العرب البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ، فهم مثل الميلشيات اللبنانيَّة التي كانت موالية لإسرائيل بعد اندلاع الحرب الأهليَّة في لبنان ، وبالمثل فقد اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة العرب المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو ، وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان.

وبين البداوة والحضارة فَرْق أساسيٌّ واحد: فبينما يكتفي البدويُّ بالضروريِّ من أسباب المعاش، فإن أهل الحضر يتوسَّعون في أسباب الترف من المطاعم والملابس والمساكن . ومن هذا الفَرْق الأساسيِّ تتفرَّع جميع خصائص البداوة وجميع خصائص الحضارة المدنيَّة بما في البداوة وفي الحضارة المدنيَّة من المحاسن والمساوئ .

وفي هذا يقول ابن خلدون : " الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم .. أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح

والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي .. [١]

ويقول د. عبد الحميد يونس عن طبيعة البادية العربية وسكانها من البدو سمات البدو " وأرض نجد جزء من الهضبة الصحراوية تتألف من الأحجار الاولية تغمرها الرمال وتكتنفها جبال بركانية ، أما مظهرها العام فبين السهل الأخضر والجبل الأجرد والبادية الصفراء ، وليست بها أنهار بالعنى الصحيح فهي تعتمد في معظم وجودها على المياه الجوفية تستخرج من العيون التي يتراوح عمقها بين عشرين وثمانين قدماً ، وقد تتبطح هذه العيون فتشبه بالمسايل والأنهار ، وقد تجف أو تغور في مجرى أسفل فتتعرض الحياة حولها إلى التلف والهلكة إلا أن يفر القادرون على الحركة إلى مكان تستطلع فيه الإفادة ولو إلى حين .

ومن ثمَّ اعتمد الأحياء في هذه الأرض على مطر الصيف والشتاء ، ويعرف أولهما بالموسمي ، وهو الذي يبعث الحياة في المروج والمراعي التي صهرها القيظ ويزيد الثاني اليابسة بنضارة الربيع ، ويفسر هذا الكلم المأثور " سقى الله من ربيع وصيف " .

وكان في أرض نجد غاب مشجر مشهور كغاب شربة (جنوبي وادي تهامة) ووجرة وغيرها . ولعل الجفاف والسيل قد أتيا على معظمها وجوها قلب ، يبرد إلى الجمد في الشتاء ، ويسخن إلى حد لا تكاد تطيقه في الصيف .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٢١ .

هذه البيئة المادية قد طبعت أولئك النجديين من هلالية وغير هلالية بطابعها فجعلتهم كاسمهم أدنى إلى الجبليين بسطة جسم وصلابة عود وقوة شكيمة إلى كثير من الاستعلاء والنزوع إلى الاعتداء مع قدرة على الحرمان وخصوبة في الإنجاب ، ليست فيهم سهولة أهل البسيط من الأرض ، ولا لين جانبهم ولا دماثة خلقهم ، وقلما يعرفون الوطنية معرفة المستقر الآمن صاحب التراث المكين ، وهم أهل عاطفة تستبد بهم السورة إذا اعتقدوا في شيء تشبثوا به آخر العمر ، وتشددوا في الدفاع عنه ، وطلبوا إلى عيرهم أن يعتقدوا فيه راغمين .

ومن اليسير أن نلم بسيرة أهل الوبر هؤلاء لأنهم كانوا يعيشون في مرحلة ثقافية لمّا تبلغ الحضارة التي عهدناها في الأمم القديمة ، وكانوا متفرقين عشائر وقبائل وأحلافاً أساسها الأسرة ، وقد لونت ظروفهم الطبيعية حياتهم وجعلت تاريخهم يقوم كله أو اكثره على الصراع بينهم وبين الطبيعة ، وهذه المرحلة الثقافية هي التي يعرفها العلماء بالمرحلة الرعوية التي انتهى فيها الإنسان من تأليف الأنعام واستئناسها والاعتماد عليها في جميع شئونه . " [١]

لغة البدو

" وإذا انتقلنا إلى المجال اللساني فسوف نجد أن هؤلاء الأعراب لهم لهجة دارجة إذا شئت ، يتفاهمون بها في حياتهم اليومية ، إلى جانب اللهجة الفصيحة العامة التي كانت بمثابة اللغة الأدبية أو الدبلوماسية بين سائر الجماعات في الجزيرة العربية ، وهي التي كانت مناط التفاهم

---

(١) د . عبد الحميد يونس " الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي " كتب عربية ص ٢٠ ، ٢١ .

في المحافل والأعياد والأسواق العامة عندما تتداعى هذه الوحدات المختلفة أبداً إلى سلم دائم أو مؤقت في مكان حرام أو شهر حرام ، ولكننا لم نصل إلى مدونات هذه اللهجة كما وصلت إلينا مدونات اللهجة الفصيحة العامة ، وانحباس الجزيرة العربية عن الغرباء أمداً طويلاً لم يشجع العلماء الأنثروبولوجيين أو اللغويين على التقاط ما بقي في ألسنة النجديين المحدثين من تلك اللهجة ، وكل ما يستطاع أن يتبين الآن مستمد من القراءات أو الروايات المأثورة عن اللهجات ، على قلتها بل ندرتها ، وهو يفيد أن هؤلاء الأعراب كانوا من أفصح الناس لغةً وأنهم ظلوا كذلك أجيالاً مما يدل على أصالة أرومتهم العربية من ناحية ، وقرب لهجتهم من اللغة الفصحى من ناحية أخرى " (١)

حياة الأعراب الاقتصادية

وحياة العرب البدو حياة ترحال دائم لا تعرف الاستقرار ففي مواسم المطر يسوقون أنعامهم إلى حيث منابت العشب والكلأ أينما وجدت ، ولا يتركونها إلا إذا أجدبت ، وعندما ينتهي موسم المطر يعودون إلى مواطنهم .

ووراء المجتمع المكيِّ كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدويَّة تعتمد على رعي الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضِّلون شيئاً على حياتهم الرعويَّة البدويَّة، لا يفضِّلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونها ويزدرونها فلا حياة تعدل عندهم حياة البساطة والحريَّة التي لا تحدُّ . ووقفت الصحراء

---

(١) د . عبد الحميد يونس " الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي " كتب عربية ص ٢٦ .

تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم سوراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراويَّة . ، وهي حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه في وسطه منطقة وقد تلفُّه عباءة وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيَّات، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوي ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التي كانت تلقي في روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعالي والجن والغيلان ، وفي تضاعيف ذلك كان العرب يتربَّص بعضهم ببعض إذ كانت حياتهم حياة حربيَّة داميَّة وكاد أن لا يكون هناك حيٌّ أو عشيرة بل وأسرة إلا وهي واترة موتورة . (١)

الحياة في بوادي سيناء

ولقد عشت في سيناء في " أم خشيب " تحديداً حياة كهذه عام ١٩٩٠م ورأيت مدى قسوة الطبيعة وشظف العيش وجبال المخاوف والأوهام فإذا اشتدت الحرارة نهاراً ، وهي دائماً ما تشتدُّ ، فهي من فحيح الجحيم ، وإذا اشتدت البرودة ليلاً ، وهي دائماً ما تشتدُّ ، فهي من زمهرير جهنم ، وإذا أظلم الليل وغشانا ظلامه استحال الغثاء الأحوى إلى غيلان وعفاريت ، وداهمتنا الهوام والحيّات وعشنا تحت رحمتها حتى يدركنا نور الصبح الذي يأتي دائماً متأخراً جداً ، أما إذا هبَّت

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٧٧، ٧٨ دار المعارف . الطبعة العاشرة

العاصفة فإنها تطفئ نور الشمس في رابعة النهار ، وإذا هطلت السماء فهي شلالات ونصير نحن وما نملك كغثاء السيل ، أما الطعام والشراب فإذا ما وجدت ما يسد الرمق صباحاً فلا تنتظرن رائحته في المساء . إن منتهى أملك في هذه الأجواء فحسب أن تبقى على حياتك ، ولا همَّ لك سوى ذلك ؛ فأنت دائماً مدجَّج بالموت تنتظره في كل آن وحين فإن لم تمت بقسوة الطبيعة متَّ بلسعة هوامها أو طعنة صعاليكها .

وهذه الأجواء تؤجِّج الخيال وتنعش أحلام اليقظة وتجعلك ترى رغيف الخبز الجاف كمائدة بني إسرائيل ، وقطرات الماء العكر عيناً سلسبيلاً، والحيزبون حور عين تلهمك عيون شعر الغزل العفيف ؛ فأنت لا ترى سوى عنين وسط ركام من أشباه الملابس . وأكاد أجزم أن عبلة حبيبة عنترة ، وعزة محبوبة كثيِّر ، وبثينة معشوقة جميل ما هن إلا كالعُزَّى التي قتلها خالد بن الوليد بعد فتح مكَّة وكما أن العرب عبدوها دون أن يروها على حقيقتها كذلك هام هؤلاء الشعراء في محبوباتهم حباً وأنشدوهن شعراً دون أن يرونهن على حقيقتهن أو يرين غيرهن من النساء .

ولكن هذه الصورة للطبيعة الجغرافيَّة والمُناخيَّة ولحياة البدو في أم خشيب أو وسط سيناء تختلف تماماً وجذريّاً عن طبيعة الوادي والدلتا حيث المناخ المعتدل صيفاً وشتاءً وحيث نهر النيل وضفتيَّه الخضراوان وحيث أقدم حضارة في التاريخ، بل تختلف الحياة قي وسط سيناء عن شمال وجنوب سيناء حيث العمران والتمدُّن .

وسائل كسب الأعراب

نعود إلى بدو الجزيرة العربيَّة نبحث عن وسائل كسب الأعراب عيشهم كان الشعر يمدحون به السادة والكبراء من عرب الجزيرة فينالون عليه العطايا السخيَّة ، وكبار الشعراء قصدوا ملوك المناذرة والغساسنة فمدحوهم ونالوا عطاياهم كامرئ القيس، النابغة البياني ، وأوس بن حجر ، ولبيد ، المثقب العبدي ، والأعشى ، والمرقش الأكبر ، وحسان بن ثابت ، وعلقمة بن عبدة ...

ونوع آخر اتَّخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش : وهو الغارة والسلب، يغيرون على قبيلة معادية – وكثيراً ما تكون المعاداة بين القبائل – فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربَّص بهم القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا ، بل هم إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم .. ومن أجل هذا كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت إلى الاحتماء بقبيلة قويَّة تذود عنها ، ولكن قلَّ أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنقصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين .

وأفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * في النائبات على ما قال برهانا [١]

فلم تكن حياة الأعرابي تقوم على الرعي فحسب بل كانت تقوم أيضاً على السلب والنهب وقطع الطريق وذلك لأنه لم تكن هناك عدالة

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " ص ١٩ بتصرف يسير .

اقتصاديَّة في توزيع الموارد لذا فقد كان يلجأ الفقراء المعوزون تحت وطأة الجوع إلى قطع الطرق ، والإغارة .

وقد تحوَّلت هذه الحياة الحربيَّة من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذي كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء . [1]

والبدو يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة فليس لهم من القدرة العقليَّة أو المهارة اليدويَّة أو الهمَّة الفاعلة أو الخبرة المكتسبة ما يؤهلهم للقيام بهذه الأعمال لذا لم تقم على أرضهم أيَّة حضارة أو أي مظهر من مظاهر الرقي .

حياة الأعراب الدينية

والبدويُّ (الأعرابيُّ) ضعيف الإيمان بدين ، فهو لا يؤمن إلا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٧]

وبرغم أن أعراب الجزيرة العربيَّة كانوا يعلمون أن هناك إلهاً خلقهم وخلق السموات والأرض وسخَّر الشمس والقمر إلا أنهم كانوا يتَّخذون الأصنام التي نحتوها لكبرائهم الجوَّادين أو للملائكة المتخيَّلين أو لغير ذلك وسيلة يتقرَّبون بها إلى الله !!

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

([1]) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " دار المعارف ص ٧٨

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]

إذن هم يعترفون بالله الخالق الرازق ، ولكن مشكلتهم أنهم ،اعتزازاً بشيوخهم وكبراء قومهم ، اتخذوهم شفعاء عند الله ليتقرَّبوا بهم إليه .

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣]

﴿وَيَعْبدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ [يونس : ١٨]

والناظر في سيرة أشهر المعبودات في الجاهليَّة يجد أن من يعبدونها يزعمون أنها كانت لأشخاص ذوي فضل وأيادٍ ؛ فخلعوا عليهم أسماء الله تعالى بعد أن نقصوا فيها وزادوا مثل : اللات والعزى ومناة .

وذكر المفسِّرون ما روي عن ابن عباس في إلحاد كُفَّار العرب في أسماء الله تعالى أنهم سموا بها أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فاشتقُّوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان .

" كَانَ اللاتُ رَجُلا يَلُتُّ سَوِيقَ الْحَاجِّ " [رواه البخاري]

يلت السويق : أي يبس الطعام المصنوع من الحنطة والشعير بالماء ونحوه ؛ ليطعم حجاج الكعبة .

وعن مجاهد قال : " كانت اللات رجلاً في الجاهليَّة على صخرة بالطائف وكان له غنم فكان يأخذ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حَيْساً ويطعم من يمر من الناس ، فلما مات عبدوه وقالوا : هو اللات."

الحَيْسُ : تمرٌ وأَقِطٌ وسمنٌ تُخلَط وتُعجَن وتُسوَّى كالثَّريد .

وعن ابن عباس أنه قال : كان اللات يلت السويق على الحاج فلا يشرب منه أحداً إلا سمن فعبدوه .

وعن ابن جريج في قوله { أفرأيتم اللات } قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أخذ عدواناً . (١)

وأما " مناة " فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المشلل ، بين مكة والمدينة، وكانت قبيلة خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظِّمونها ويهلُّون منها للحج إلى الكعبة . قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن دماء الذبائح كانت تمنى عندها ، أي: تراق وتسكب . (٢)

وكما ترى أن العرب كانوا يعتزُّون أشد الاعتزاز بالكرماء الجوَّادين الذين يطعمون الطعام ويقرون الضيف ويغيثون اللهفان ويحمون من ينزل بساحتهم خاصة حجيج بيت الله الكعبة ؛ لذا عبدوهم بعد موتهم أو اتَّخذوهم شفعاء عند الله لعظم مكانتهم لديهم ، وهذا بسبب ما كان يعانيه العرب من قسوة الحياة وشظف العيش وفقدان الأمن وتعظيم بيت الله ، وخاصة البدو منهم فمن كان يجود عليهم بالطعام كأنه يجود عليهم بالحياة ومن أجارهم من عدوهم فكأنما صرع شبح الموت الرابض فوق رءوسهم .

لذلك الله تعالى طلب منهم أن يعبدوه وحده لأنه هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

---

(١) جلال الدين السيوطي تفسير " الدر المنثور" ج ٩ ص ٣٢٣

(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ٤٠٠٢

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ١–٤]

فإذا كنتم أيها العرب تعظِّمون الكرماء الذين يجودون عليكم بما يبقي على حياتكم من طعام خاصة من انقطعت بهم السبل من حجيج الكعبة، وتعظِّمون الفرسان الذين يحمونكم من غارات المعتدين فالله تعالى أهلك أبرهة الأشرم الذي جاء ليهدم الكعبة من أجل أن يؤلِّف قريشاً زعيمة العرب وحامية بيته الحرام ، ويبقي لهم رحلتي الشتاء والصيف التي لولاهما لهلكوا لأنهم قوم رعاة في أرض قاحلة غير ذات زرع ﴿رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم﴾ وهو الذي جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض ، يقدِّمونها لحماة بيت الله على سبيل تبادل المنفعة تارة وعلى سبيل الصدقة تارة أخرى فإن لم تعبدوا الله من أجل نعمه التي لا تحصى ، فاعبدوه من أجل أن جعلكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين في أمان واطمئنان ، وأنه جمع شملكم ، وألف بينكم، وحماكم من أعدائكم ، ومن أجل أنه تعالى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويرفع الضر عنكم إذا مسكم .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]

متى كان العرب الجاهليون يلجئون إلى الله ؟

وكان العرب يلجئون إلى الله تعالى الواحد الذي لا شريك له إذا أصابهم ضر ويجأرون له بالدعاء إذا نزل بهم كرب وجاء في السِّيَر أن عكرمة بن أبي جهل هرب عند الفتح، وركب سفينة، فاضطرب بهم البحر فقال ملاحها: أخلصوا الدعاء لله وحده الآن، فإنه لا ينجي من هذا إلا الله، فقال: عجيب! إذا كان لا ينجي في البحر إلا الله فلا ينجي في البر إلا هو، لله عليَّ إن أنجاني الله من هذه لآتين محمداً، ولأضعنَّ يدي في يده، ولأجدنه رءوفاً رحيماً .

قال عكرمة بن أبي جهل هذا مع أنه كان يركب السفينة مع جماعة مشركة تعبد الأصنام، ومع ذلك فإنهم عند الشدة لجئوا إلى الله وحده لا شريك له سبحانه .

لذا لا عجب أن العرب لم يلبثوا طويلاً بعد ظهور الإسلام أن دخلوا في دين الله أفواجاً ريثما تخلصوا من عاداتهم القديمة التي أفسدت عليهم عبادتهم لله الواحد الأحد .

وحقائق التاريخ تؤكد أن العرب لا يصلحهم إلا الدين ولا يوحد بينهم إلا شريعة الله ، ولا يستعبد قلوبهم إلا الإحسان ولا ينفرون من شيء قدر نفورهم من عَضَل الدين وقهر الرجال .

وهذا ما لم يدركه حكام الوادي في تعاملهم مع بدو سيناء فإنهم لم يوفِّروا لهم متطلبات حياتهم وهي يسيرة ، ولم يوفِّروا لهم أسباب الأمن وهي ضرورة ، ولم يعاملهم بكرامة وهي مطلب رئيسي ؛ فعاداهم بدو سيناء بدلاً من الخضوع لحكهم .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

هل كان العرب يتطلعون إلى دين جديد ؟

يقول العقاد في عبقرية محمد واصفاً حال العرب في الجاهلية : " فمن هنا نعومة العيش والطمع والخمر والقمار والمتعة وتسخير الأقوياء للضعفاء. ومن هنا الفقر والحسرة والشك في صلاح الأمور .

ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذي يستريح ويهدأ فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير ، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه .

اجتمع أناس بِنَخْلَة لإحياء عيد العُزَّى، فقال رجل منهم لإخوانه :

" والله ما قومكم على شيء، وإنهم لفي ضلال، فما حجر نطوف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه تذبح القرابين ؟ يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين، الذي أنتم عليه ، ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فأسلم .وكان الذي تنصَّر وسمع دعوة الإسلام ورقةَ بن نوفل، الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي، عند ظهوره، ويلقى إليه بالبشارة .

هؤلاء شكُّوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير.. "

والحقيقة التي يقررها القرآن وتبينها السيرة النبوية هي أن العرب قبل بعثته ﷺ كانوا في ضلال مبين ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ " أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ

مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ " [صحيح مسلم]

ولقد عاد العرب النبي ﷺ وحاربوا دعوته بشتى السبل كما هو معلوم لعامة المسلمين وخاصتهم وأن الحنفاء الذين تحدث عنهم العقاد نفر قليل لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ، والذين آمنوا بالنبي ﷺ عند بعثته كانوا في جملتهم ليسوا ممن قادهم الشك في عقائد الجاهلية إلى الإيمان بالدين الجديد إنما قادتهم فطرهم السليمة وإيمانهم بأمانة النبي ﷺ وصدقه ثم تفكيرهم الحر المنزه عن الهوى والعقاد نفسه قال عن أبي بكر الصديق إنه " آمن بمحمد النبي وليس بالنبي محمد " .

ويمكن أن يقال هذا عن خديجة وعلي وعثمان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار عدا قلة نادرة مثل ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وسلمان الفارسي ...

والاجتماع الذي ذكره العقاد لم يكن اجتماعاً دوريّاً كما حاول العقاد أن يوهمنا بل قال ابن اسحاق : " اجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنمٍ من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويدورون به، وكان ذلك عيداً لهم في كلّ سنةٍ يوماً، فخلص منهم أربعة نفرٍ نجيا، ثمّ قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما

قومكم على شيء ! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجرٌ نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم، التمسوا لأنفسكم دينا، فإنّكم والله ما أنتم على شيء. فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم " (١)

وهناك رواية ثانية لهذا الاجتماع ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن الخرائطي عن عروة بن الزبير وهاتان الروايتان لا تصحَّان ، وعلى فرض صحتهما فإنهما لا يؤيدان ما ذهب إليه العقاد من أن أصحاب الرأي كانوا دائمي الحديث حول الشك في عقائد الجاهلية متى اجتمعوا إنما الأمر مقصور على اجتماع واحد مجهول الزمان وعلى أربعة نفر فقط ، أسلم اثنان منهما بعد ذلك وهما : ورقة وعبيد الله ، ولم يسلم الآخران .

كما لا تفصح الروايتان عمن تكلّم في الاجتماع من هؤلاء الأربعة . كما أن رواية ابن كثير تشتمل على أسطورة بيِّنة الوضع فالصنم الذي اجتمع هؤلاء النفر عنده كان ينقلب ثم يعدلوه تكرر ذلك أربع مرات وفي المرة الرابعة لما استوى هتف بهم هاتف من الصنم جهير وأخبرهم شعراً أنه انقلب بسبب مولود أنار بنوره الشرق والغرب وارتعدت له ملوك الأرض وطفئت نار فارس وبات شاه الفرس في أعظم الكرب ، وكفت الجن عن إخبار الكهان بالغيب ، ثم ينهي مقطوعته الشعرية قائلاً : فيا لقصي ارجعوا عن ضلالكم .

والرواية بيِّنة الوضع . وقال علماء الحديث هذا حديث موضوع في إسناده وضَّاعان هما عبد الله بن محمد البلوى، وعمارة بن زيد.

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

يقول العقاد عن العرب قبل الإسلام أيضاً : " عالَم يتطلع إلى نبي، وأمَّة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي " .

والحقيقة لم يكن العالم كله يتطلع إلى نبي فقد كان هناك طوائف كثيرة : أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء، رجال ونساء ، سادة وعبيد وكان هؤلاء وأولئك غافلين لا يسعون لمعرفة الحق ولا يبحثون عن حقيقة وجودهم ولا الحياة التي يحيونها فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً " إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ "

[صحيح مسلم]

وقليل .. قليل أولئك الباحثون عن الحق الراغبون في الهداية والذي يؤكد هذا أن أكثر الناس لم يؤمنوا ببعثته ﷺ عندما بُعِث بل أنهم عادوه وحاربوا دعوته وعذبوا أنصاره ولو كانت مكة تتطلع إلى نبي كما قال العقاد لأسرع أهلها إلى الإيمان به عندما دعاهم للإيمان ولكن ما آمن معه إلا قليل ممن سلمت فطرتهم من أدران الكفر وسلمت عقولهم من هوى النفس ووسوسة الشيطان والتعلق بزخرف الدنيا. وبعض ممن أعلنوا إسلامهم بعد أن عزَّ الإسلام وقويت شوكته كانوا من المنافقين أو المرائين أو الفاسقين ولم يكونوا من المؤمنين الشاكرين .

وضع المرأة في الجاهلية

والعربي يحتقر المرأة ويحطُّ من شأنها وهي دون الرجل الذي يدافع عن القبيلة ويحميها ويكتسب لها ، أما هي فتحتاج لمن يحميها ، ويكتسب لها ، وإن وقعت في الأسر جلل العار القبيلة كلها ، ولقد حكم القرآن الكريم بسوء الحكم على تصرفهم بإزاء المرأة فقال تعالى ﴿وَإِذَا

بشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩]

بل إن بعض القبائل العربيَّة امتدت أيديهم الآثمة لتئد الإناث ، وتواري البنات التراب بما لم يؤثر عن أحد من العالمين فعله !!

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩]

كان عند العرب نوعان من النساء : إماء وحرائر ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقيان يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة .

وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، ولم يكن شيء يثيرهم كسبي نسائهم فكانوا يركبون وراءهم كل وعر حتى يلحقوا بهن وينقذنهن ويغسلوا عار سبيهن عنهن . وكان جمال النساء يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من طيب وحلي وثياب ، وكانوا يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض المعاهد والمنازل ويمزجون ذلك بالدموع"[1]

هل كان العرب قبل الإسلام أمة

يقول العقاد في عبقرية محمد : " وبين هذه الدول المنهارة أمَّة ليست بذات دولة ولكنها تتأهَّب لإقامة دولة هي أمَّة العرب "

---

(1) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٧٢، ٧٣ بتصرف

يعرف المعجم الوسيط الأمة بأنها : " الأُمَّة جماعة من الناس أكثرهم من أَصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ، ومصالح وأَمانيُّ واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان ، يقال : الأُمة المصرية، والأُمة العِراقية "

وبناء على هذا التعريف فإن العرب لا يعدون أمة وإن جمعهم أصل واحد وصفات مورثة ولغة واحدة ؛ لأنهم لم يجتمعوا على مصالح وأماني واحدة ، ولم يجتمعوا على دين واحد ولا مكان واحد إنما هم قبائل متفرقة في جزيرة العرب ليس لها حاكم يخضعون له ولا قانون يلتزمون به ولا مكان ثابت يستقرون فيه فمعظمهم بدو رحَّل ولم يصبحوا أمة إلا بعد ظهور الإسلام وإيمانهم برسوله الكريم ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

[البقرة : ١٤٣]

لم يكن العرب في سبيلهم لإقامة دولة قبل بعثته ﷺ فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم المتحضِّرة قديماً وحديثاً ، ومردُّ ذلك إلى النزعة الفرديَّة التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة حاكم عام ضعفاً وجبناً ، فقبول حكم صادر من غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد .

وفي ذلك يقول محمد فريد وجدي : " أما دعواهم بأن القبائل العربية كانت تتهيأ لجمع شتاتها ، والقيام على هيئة أمة قبل بعثة النبي ﷺ ، فهي دعوى لا دليل لهم عليها ، بل لا أثر يؤثر عنها ، وإن أمة تدب فيها هذه روح ولا تُؤْثر عنها كلمة فيها بيت من الشعر أو أية حركة تنم عليها ، لأمر يوجب الدهش ، لا سيما وقد نقل الرواة من أخبارها كل

صغيرة وكبيرة ، بل اختلقوا عليها ما شاءوا أن يختلقوا ، فلو كان لديها ميل للاجتماع لما خفي أمره ، ولكانت له شواهد كثيرة تشير إليه " [١]

نظام العرب الاجتماعي

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبنائها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبيَّة المجاورة وخاصة الحبشة ، والمولى وهم عُتقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائمهم وجناياتهم ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعي للأنعام والأغنام فتلك كانت موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين يملكون شيئاً . وتحوَّل كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع طرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشنفرى وأضرابهما. وما كانت تقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكف السماء عن غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحل فلا يكون لهم سوى شن الغارات . [٢]

وكان الرابط الذي يوثِّق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبيَّة ، وهي عصبية قبليَّة ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً

([١]) محمد فريد وجدي "السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة " الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٩

([٢]) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " مرجع سابق ص ٨١

تكوَّنت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلَّت تقوم على أساس العصبيَّة القبليَّة ، وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربيَّة أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد إنما كلُّ ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس ومن هذه الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويظن أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القويَّة الكبيرة لتحميها وتردَّ عنها العدوان .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سوَّلت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدي على أحد أبنائها .

فكلُّ فرد فيها يضحِّي لها بنفسه كما يضحِّي بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديَّته وشخصيَّته وحريَّته يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبيَّة سيطرت على نفوسهم وقدَّسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينيَّة ، فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبيَّة القبليَّة فإنها خاصَّة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد .

وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبيَّة فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها ، وكانت القبيلة من جانبها تعطي لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبَّب على أتفه

الأسباب . وقد تحوَّلوا بسبب اختصامهم على المراعي واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربيَّة ، فكل كتيبة مستعدَّة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى . فدائماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا في حروبهم " (١)

لقد نظر أكثر المؤرخين إلى وضع المجتمع العربيِّ في الجاهليَّة فوجدوه مفكَّكًا سياسيًّا ينقسم إلى وحدات متعدِّدة، قائمة بذاتها، تمثّلها القبائل المختلفة، ووجدوا أنّ العصبيَّة القبيلة هي التي قضت على فكرة الترابط السياسي ، ولقد أثَّر النظام الاقتصاديُّ في النظام السياسيِّ والاجتماعيِّ. فقد كانت القبيلة هي أساس المجتمع بدلاً من الدولة. فهي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية. فليس فوقها مجتمع عندهم، وهي في معنى شعب عندنا الآن .

أمَّا في الجماعات المتحضِّرة فإنَّ التنظيم الاجتماعيَّ يرتكز على نظام عامٍّ هو التنظيم السياسيُّ أو الدولة. ومن أهمِّ أُسسها توفُّر الأرض المعنية والملك أو التملُّك. وتتعامل السلطة مع الناس، في إطار كهذا، كسكان في وحدة إقليمية كالبلدة أو البلد أو الدولة .

كان مجتمع شبه الجزيرة العربيَّة – ومعظمه من البدو . مجموعة من القبائل، كل منها يشكِّل مجتمعًا قائمًا بذاته، مستقلاًّ في إدارة شئونه ومعيشته وحكمه. وبفضل العصبيَّة للقبيلة أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها، والتغلب على غيرها، لتضمن لنفسها موردًا لحياتها. ولذلك

---

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص من ٥٧ – ٦٢ بتصرف .

كانت حياة القبائل المتبدِّية صراعًا دائمًا، والصراع هجوم ودفاع ؛ فالهجوم يتمُّ بقصد الحصول على مزيد من الرزق، والدفاع يقومون به للحفاظ على وجود القبيلة، والدفاع والهجوم يتطلَّبان التكتُّل والدخول في أحلاف مع القبائل الأخرى. ولهذا اعتُبر قانون البادية قانون الغاب، وقوامه قول زهير بن أبي سُلْمَى في معلقته .

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ

وكان ابن القبيلة يعتزُّ بنسبه اعتزازًا كبيرًا؛ إذ إنه هو الذي يحدِّدُ هُويَّته، فبدونه يتحوَّل إلى " دعيّ " وهو من ينتسب إلى غير قبيلته أو قومه، وندر أن اعتزَّت أمَّة بأنسابها مثل العرب، ومن ثَمَّ يمكن الجزم بأنَّ النَّسب "ملمح" عربيٌّ أصيل ينفرد به العرب دون سائر الناس. وقد تخصص بعض الأشخاص في هذا النوع من الفن، فن حفظ الأنساب، وكانت لهم مكانة مهابة .

ويأتي على رأس القبيلة شيخها، وشيخ القبيلة رئيس بالعصبيَّة، أي أنَّ القبيلة هي التي تختار من أفرادها رجلاً تقدُّمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوُّعًا منها. والمفروض أن يكون شيخ القبيلة، كما تدلُّ كلمة "شيخ" كبيرًا في السن. فإذا كان صغير السن ثم اتَّفَقَ أن كانت له حكمة وشجاعة وثروة مضافة إلى شرف أصل قدّمته قبيلته للرئاسة .

أنّ الرئيس بالعصبيَّة (شيخ القبيلة) لم يكن يتناول من قبيلته مالاً، بل كان هو يقوم عن المحتاجين بما كان المحتاجون يعجزون عن القيام به، يُطعم الفقراء منهم ويدفع الدِّيات عن الذين لا يملكون ما يدفعونه، إذا وجبت عليهم ديَّة . أمَّا الامتياز الذي كان شيخ القبيلة يتمتع به فهو أنه كان حَكمًا في المنازعات وكان حُكمه نافذًا على الجميع .

وكانت سلطة شيخ القبيلة تعتمد، في الدرجة الأولى، على ما يتمتَّع به من مكانة وما يحظى به من احترام وتبجيل . وكانت وسيلته إلى تحقيق مشيئته هي الإقناع أكثر من الإجبار، والتأثير الشخصيِّ أكثر منه القوَّة الماديَّة. وفضلاً عن ذلك فإنَّ رئيس القبيلة لم يكن ينفرد باتخاذ القرارات في المسائل المهمَّة أو المصيريَّة، بل كان ملزمًا بدعوة زعماء العشائر والشخصيات البارزة في القبيلة إلى مجلس يناقشون فيه المسائل المطروحة، ويتخذون في شأنها ما يشاءون من قرارات، ولم يكن هذا المجلس مجرَّد مجلس استشاريٍّ، وإنما كان مجلسًا له وزنه وثقله. ولم يكن في وسع سيِّد القبيلة تجاهل هذا المجلس، واتخاذ قرار مغاير لما استقرَّ عليه الرأي فيه.

وسيِّد القبيلة بوصفه رئيسًا ينوب عنها في علاقاتها بالقبائل الأخرى. فهو الذي يرسل الوفود إلى سادات القبائل الأخرى في المناسبات المختلفة لعقد حلف، أو تفاوض، أو التهديد بحرب، أو للتهنئة أو التعزية، وما شاكل ذلك من أمور .

وكانت تجمع القبائل اتحادات "الأحلاف" ويُظنُّ أنَّ هذه الاتحادات لعبتْ دورًا كبيرًا في تكوين القبائل؛ إذ كانت تنضمّ العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وتردُّ العدوان عنه. (١)

العرب والحضارة

ليس بين أيدينا ما يدلُّ على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أن العرب الجنوبيين لم يخْطوا في طريق

---

(١) لمزيد من التفصيل حول النظام القبلي انظر محمد الخطيب " النظام القبلي عند العرب في الجاهلية" منتدى اجتماعي .

الحضارة خطى واسعة فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيِّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسي كان يعمهم النظام الإقطاعي ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنات أو الدولة الحميريَّة تحولوا إلى قبائل بدويَّة . (١)

ورغم أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كالفرس ، والروم ، مصر .. لكن فيما يبدو أن ذلك كان يجري في حدود ضيقة وأنه وقف في جمهوره عند تأثيرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم.

لعل أهم معارف العرب علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوي في ذلك من المناقب والمثالب ويلي هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم مطالعها وأنوائها وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلُّم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبيَّة ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكي بالنار وفوائد بعض العقارات النباتيَّة .

وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفي من الكلب وأن عظام الميت تشفي من الجنون وأن روحاً شريرة تحل في المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرقى فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيّاً على قواعد عقليَّة، كانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهي تتبع الأثر في الأرض والرمل . (٢)

---

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص ٨١
(٢) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص٨١-٨٣ بتصرف

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أوليَّة ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسَّس على قاعدة ولا على نظريَّة ، فهم في جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلي مؤسَّس على أسلوب علمي ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العِيافة وهي التنبؤ بملاحظات الطير وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا سيتقسمون بالأزلام والقداح وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلي عندهم كان ضعيفاً وأنهم لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطا محكماً .

وهذا طبيعي فقد كانوا في طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلِّة والمعلول ، وكانوا لا يتعمَّقون في بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ولا يتعلَّقون بمدركات كليَّة أو نظرة شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . (١)

العرب والسياسة

لم تضم العرب قبل الإسلام دولة موحدة ذات نظم حاكمة ، وقوانين عامة مطبقة ، فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم قديما وحديثا ، مرد ذلك إلى نزعة الفردية التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " ص٨٥

حاكم عام ضعفا وجبنا ، فقبول لحكم غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد

يقول الحارث بن عباد

قَد مَلَكناكُمُ فَكونوا عَبيداً ما لَكُم عَن مِلاكِنا مِن مَجالِ

وهم يعدون الخضوع لسلطان ملك خزي وعار لذا فهم دائما ما يؤكدون في أشعارهم عدم خضوعهم لسلطان الملوك ، وأنهم كثيرو المنازلة لهم والتغلب عليهم .

عمرو بن كلثوم

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا
وَسَيِّدِ مَعشَرٍ قَد تَوَّجوهُ بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا
تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا
إِذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفاً أَبَينا أَن نُقِرَّ الذُلَّ فينا
نُسَمّى ظالِمينَ وَما ظُلِمنا وَلَكِنا سَنَبدَأُ ظالِمينا

ويقول المهلهل بن ربيعة

لَم نَرَ الناسَ مِثلَنا يَومَ سِرنا نَسلُبُ المُلكَ غُدوَةً وَرَواحا

ويقول امرؤ القيس

فَما مُلكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى بِمُقتَدِرٍ وَلا مُلكُ الشَآمِ
أَصَدَّ نِشاصِ ذي القَرنَينِ حَتّى تَوَلّى عارِضُ المَلِكِ الهُمامِ

ويقول عنترة

وَسائِلي السَيفَ عَنّي هَل ضَرَبتُ بِهِ يَومَ الكَريهَةِ إِلّا هامَةَ المَلِكِ

إن مجد العربي الذي يفاخر به ، والذي يظل العمر كله يدافع عنه ، ويورثه لأبنائه من بعده هو السيادة والحرية التي تتنافى مع الإذعان

لأي حاكم وإن كان من بني جنسه ، والخضوع لأي قانون وإن كان فيه مصلحته .

مفهوم السيادة عند العرب

إن روح الفردية ، والأنا المتضخمة ، والكبرياء الزائفة ، وغمط أصحاب المواهب هي التي جعلت العربي يرفض أن يعيش في مجتمع الحكم فيه لغيره وإن كان أهلٌ له ويعتبره عبودية ومذلة ، ويفضل شق عصى الطاعة والعزلة ويعتبر ذلك سيادة وعزة !!

يقول زهير بن جناب الكلبي

أَبَنِيَّ إن أَهلِك فَإنّ ... ي قَد بَنَيتُ لَكُم بَنِيَّه
وَجَعَلتُكُم أَبناءَ سا ... داتِ زِنادُكُم وَرِيَّه

فالسيادة لدي العربي تعني التمرد على القوانين العامة ، والتمرد على نظام الدولة ، وعدم الخضوع للأحكام الملوك . مما أدى إلى تفكك المجتمعات العربية ، وضعفها ، وتخلفها ، وعدم قيام أي حضارة على أرضها ، لأن الوحدة والتعاون والنظام هي عماد أي حضارة والعربي يفتقر عليها جميعا " واتسمت المجتمعات السياسية التي قامت على قواعد النظام القبلي بضيق الأفق ، وقصر عمر المؤسسات فيها ، إذ بقيت القبيلة هي الوحدة السياسية العليا ، وشيخها هو الرئيس الأعلى ، دون أن تسمح النظرة القبلية الضيقة بانطلاق الأحلاف الكبرى نحو بناء مجتمع واحد .

فكان شيخ القبيلة يجد في تلك النظرة الضيقة ينبوعاً يغذي روح الفردية والأنانية السياسية والسبيل إلى الخروج من أي مجتمع سياسي قد تضطره الظروف إلى الانضمام إليه وغدت صورة الحياة القبلية في بلاد

العرب قبل بعثة الرسول الكريم صورة بناء متداع، وما صاحب هذا التداعي من الفوضى في جميع النظم التي سيطرت على تلك الحياة . فانهارت الممالك القبلية في بلاد اليمن بسبب التنافس بين الأقيال والأزواء وخضعت لسلطان القوى الأجنبية التي استغلت ذلك التنافس" [١]

إن أكبر آفة ابتلي بها العرب قديما وحديثا آفة الفرقة والصراع على الحكم ، والخروج على الحكام ، وغلبة روح الفردية ، والخروج على النظام العام ، وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة .

رأي ابن خلدون في العرب وسياسة الملك

لابن خلدون رأي في علاقة العرب بسياسة الملك ، وهو أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ويعلل رأيه هذا فيقول :

" والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالاً في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج إليهم غالباً لعصبية التي بها المدافعة فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم .

وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر وإلا لم تستقم سياسته وأيضا فإن من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتحافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما

---

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي " تاريخ العالم الإسلامي " ص٤٤ مكتبة الأنجلو المصرية .

في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعاً وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه .

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم .

كان رستم إذا رأى المسلمين مجتمعون للصلاة يقول أكل عمر كبدي يعلم الكلاب الآداب ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب أمر الخلافة وامحي رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم وما كان في القديم لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود

والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الإسلام بني أمية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب لهذا العهد فلا يكون ماله وغايته إلا تخويب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء " [1]

وزبدة القول في موضوع العرب والسياسة أن العرب لم تضمهم قبل الإسلام دولة موحدة ذات نظم حاكمة ، وقوانين عامة مطبقة ؛ فقد قامت حياتهم على النظام القبلي المغلق الرافض للانخراط في سلك مجتمع أكبر ذي قوانين عامة حاكمة يخضع لها الجميع ، كما هو معروف في سائر الأمم المتحضِّرة قديماً وحديثاً ، ومردُّ ذلك إلى نزعة الفرديَّة التي تميز بها النظام القبلي ، والذي يعد الخضوع لسلطة حاكم عام ضعفاً وجبناً ، فقبول حكم صادر من غير سيد القبيلة عبودية ، ففكرة المواطنة لم يكن لها وجود في شرعتهم ، فإما سادة أو عبيد .

صفات العرب الحميدة

ومع ذلك فإن البدوي يتمتع بثلاث خصال حميدة لا ينفك عن ذكرها في أشعاره وهذه الخصال هي : الشجاعة ، والكرم ، والبلاغة . فالبدوي قوي البنية شجاع القلب لا يبالي بالمخاطر في القتال ، ولا يبيت على وتر ، ولا يرضى بالذل والهوان .

صفة الشجاعة

من أبرز سمات العربي عن غيره سمة الشجاعة ، وعدم الرضا بالذل والهوان .

---

[1] مقدمة ابن خلدون ج١ ص ١٥٢ دار القلم بيروت – لبنان

يقول المتلمِّس :

إنَّ الهَوانَ حِمارُ القَومِ يَعرِفُهُ ... والحُـرُّ يُنكِرُهُ والرَّسلَةُ الأُجُدُ
وَلَن يُقيمَ عَلى خَسفٍ يُسامُ بِهِ ... إِلاّ الأَذَلاّنِ عَيرُ الأَهلِ وَالوَتِدُ
هَذا عَلى الخَسفِ مَربوطٌ بِرُمَّتِهِ ... وَذا يُشَـجُّ فما يَرثي لَهُ أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئا مثل إنكارهم للهوان والضيم فهما السوءة الكبرى والمثلبة العظمى وكان أقل شعور بهما يثيرهم .

لكن شجاعة العربي هذه كان كثيراً ما كان يسيء استخدامها بسبب قوة انفعاله وضعف عقله ، مما حولها إلى تهوُّر طائش مما نتج عنه كثرة الحروب التي تدور بينهم على أتفه الأسباب ، والتي تمتد لسنوات طويلة ، وهي غالباً منازعات فردية لكن بسبب العصبية القبلية تتحول إلى معامع بين القبائل فكل قبيلة كانت تناصر دائما كل فرد فيها ظالماً أو مظلوماً .

فما هي إلا أن يقتل أحد منهم فإذا سيوف عشيرته مسلولة وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته تؤازرها في الأخذ بثأرها ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارث الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل . [١]

ولعل أكبر وأطول حربين في تاريخ العرب الجاهليين تؤكد هذا فحرب " داحس والغبراء " كان السبب في نشوبها رهان على فرسين فسميت باسميهما ، وقصة البسوس كان السبب في نشوبها ناقة لسيدة تدعى

---

(١) د. شوقي ضيف " العصر الجاهلي " دار المعارف ص ٦٢

البسوس خالة جساس بن مرة سيد بكر قتلها كليب سيد تغلب فلما علم جساس بقتل ناقة خالته ثار لكرامتها وقتل كليباً . وبرغم تفاهة داعي الاقتتال وفرديته إلا أنه تحول إلى معامع قبلية استمرت عشرات السنين.

صفة الكرم

الصفة الحميدة الأخرى التي يتسم بها العربي هي الكرم ، فلعربي كريم لدرجة لا نظير لها فهو لا يضن على ضيفه بما عنده من لحم جزور أو أي طعام فإن لم يجد خرج ليصطاد له فإن لم يجد هم بذبح ابنه طعاماً لضيفه .

وهو إذ يفعل ذلك إنما يفعله ليمدح بالكرم ، ولا يذم بالبخل الذي كان أكبر مذمة هو والجبن وضعف القبيلة ، وخسة الأصل . ولعل هذه الأبيات التي قالها الخطيئة توضح بجلاء إلى أي مدى بلغ الكرم مداه عند العرب . وقصيدة الخطيئة تحكي لنا عن أعرابي لم يذق طعاماً منذ ثلاث حتى تحول أولاده إلى ثلاثة أشباح وإذا به يرى ضيفاً وسط الظلام فتجهز لاستضافته وكاد يهلك أسى لأنه لا يجد ما يقدمه لضيفه ، فاقترح عليه ابنه أن يذبحه ليطعم الضيف هذا خير من تعيير الناس أباه بالبخل ، وكاد الرجل أن يفعل إلا أنه رأى قطيعاً من حمر الوحش قد اكتنزت لحماً وأطبقت شحماً فاصطاد إحداها ، وأطعم ضيفه وسلم من المذمة .

رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ   فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَسَوَّرَ وَاِهتَمّا
وَقالَ اِبنُهُ لَمّا رَآهُ بِحَيرَةٍ   أَيا أَبَتِ اِذبَحني وَيَسِّر لَهُ طُعما
وَلا تَعتَذِر بِالعُدمِ عَلَّ الَّذي طَرا   يَظُنُّ لَنا مالاً فَيوسِعُنا ذَمّا
فَرَوّى قَليلاً ثُمَّ أَجحَمَ بُرهَةً   وَإِن هُوَ لَم يَذبَح فَتاهُ فَقَد هَمّا

فَبَينا هُما عَنَّت عَلى البُعدِ عانَةٌ قَدِ اِنتَظَمَت مِن خَلفِ مِسحَلِها نَظما

عِطاشاً تُريدُ الماءَ فَانسابَ نَحوَها عَلى أَنَّهُ مِنها إِلى دَمِها أَظما

فَأَمهَلَها حَتّى تَرَوَّت عِطاشُها فَأَرسَلَ فيها مِن كِنانَتِهِ سَهما

فَخَرَّت نَحوصٌ ذاتُ جَحشٍ سَمينَةٌ قَدِ اِكتَنَزَت لَحماً وَقَد طُبِّقَت شَحما

فَيا بِشرَهُ إِذ جَرَّها نَحوَ قَومِهِ وَيا بِشرَهُم لَمّا رَأَوا كَلمَها يَدمى

فَباتَوا كِراماً قَد قَضوا حَقَّ ضَيفِهِم فَلَم يَغرِموا غُرماً وَقَد غَنِموا غُنما

صفة البلاغة

أما صفة البلاغة فهي أهم ما نبغ فيه العرب عامة والأعراب خاصة لذا جاءت معجزة النبي ﷺ الذي بعث فيهم في البلاغة فكان القرآن الكريم الذي أعجزهم ، والمعجزات دائما تكون من جنس ما اشتهر المرسَل إليهم به ، ولما كان العرب طبقت شهرتهم الآفاق في البلاغة والفصاحة والبيان ؛ فقد تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨]

فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود : ١٣]

وأخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٣ ، ٢٤]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس : ٣٨]

إذن البلاغة هي أعظم ما أنتج العرب ، بها اشتهروا ، وفيها تنافسوا ، وعلى أساسها تفاخروا ، وعن طريقها تكسبوا " بل أن قيمة الشعر الجاهلي ، تصاعدت حتى أصبحت تعادل قيمة الأصل الروحي والقومي للأمة العربية ، إبان صراعها مع الثقافات الوافدة ، وخلال معارك الدفاع ضد الشعوبية " (١)

فالشعر العربي كان مفخرة العرب – ربما – الوحيدة لذا لا عجب أن رأينا أعداء العرب القدماء (الشعوبيون) " كانت تبذل قُصارى جهدها للنيل من الشعر الجاهلي تارة عن طريق الطعن في نسبته .. وتارة عن طريق إثارة عواصف من النقد والتجريح تحط من قيمة موضوعاته وأساليبه متهمة إياه بالبداوة والفقر والمحدودية .. وغيرها من الصفات السلبية التي تهدف في الحقيقة إلى إدانة الإنسان العربي في عين ذاته وتجريده من مواهبه في الإبداع والرقي الفكري والاجتماعي " (٢)

***

---

(١) " موسوعة الشعر العربي " مطاوع صفدي وإيلى حاوي ص ٥ الناشر شركة خياط للكتب والنشر .

(٢) نفسه ص ٦ .

الشعر ديوان العرب

حياة العرب في الشعر

كتب صلاح عبد الصبور كتاباً أسماه " حياتي في الشعر " بين أنه عبَّر في شعره عن مراحل حياته وأفكاره ، والعرب كانوا يفعلون هذا في أشعارهم بل أكثر من هذا فالشعر ديوان العرب سجلوا فيه كل ما يتعلق بحياتهم فهو " ديوان بيانهم وجامع إحسانهم ومقيِّد ذكر أيامهم وأنسابهم وحافظ أُصولهم وأحسابهم، يعطرون بأرجه مجالس أنسهم ويعرفون به مزيّة يومهم على أمسهم ، ولهذا قال الطائي:

ولولا خِلالٌ سنَّها الشعْرُ ما درى   بغاةُ الندى من أين تُؤتى المكارمُ

مَن رفعه الشعر ارتفع، ومن وضعه الشعر اتَّضع، يُبنى بالبيت من الشعر شرف الوضيع

ويُهدم بالبيت الهجاء مجد الرفيع. " (١)

وعن الشعر يقول أبو هلال العسكري " فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها، " (٢)

أهم أغراض الشعر الجاهلي

أما أهم أغراض الشعر الجاهلي فهي : المدح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والحماسة ، والغزل ، والوصف .

---

(١) بهاء الدين الإربلي " التذكرة الفخرية " ج٢ / ٦٦٩ ، ٦٧٠)

(٢) أبو الهلال العسكري " الصناعتين " ص ٢٦٦

فكان الشاعر لا يمدح إلا من يرجو إحسانه ، وإن شد في سبيل ذلك الرحال .

يقول الأعشى :

وقد طفتُ للمال آفاقه   عُمان فَحِمص فأورِيشلم

أتيتُ النجاشي في أرضه   وأرض النبيط وأرض العجم

ويقول أيضاً في مدحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة

إلى هوذة الوهَّاب أهديت مديحي   أُرَجَّى نوالا فاضلا من عطائكا

سمعتُ بِرَحب الباع والجود والندى   فأدليتُ دلوي فاستقتْ برِشائكا

والمدح يكون دائماً بصفات محددة وهي الشجاعة ، والكرم ، شرف النسب ، وقوة القبيلة

عَمرُو بنُ مَرثَدٍ الكَريمُ فَعالُهُ   وَبَنوهُ كانَ هُوَ النَجيبُ فَأَنجَبا

غَلَبَت سَماحَتُهُم وَكَثرَةُ مالِهِم   لَزَباتِ دَهرِ السَوءِ حَتّى تَذهَبا

يقول النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الشيباني

عَلَيَّ لِعَمروٍ نِعمَةٌ بَعدَ نِعمَةٍ   لِوالِدِهِ لَيسَت بِذاتِ عَقارِبِ

وَثِقتُ لَهُ بِالنَصرِ إِذ قيلَ قَد غَزَت   كَتائِبُ مِن غَسّانَ غَيرُ أَشائِبِ

جَوانِحَ قَد أَيقَنَّ أَنَّ قَبيلَهُ   إِذا ما اِلتَقى الجَمعانِ أَوَّلُ غالِبِ

أما الهجاء فهو من نصيب أعداء الشاعر ، وأعداء قبيلته ، أو من يبخل عليه بالعطاء ، والهجاء يكون بالبخل وخسة الأصل والجبن وضعف القبيلة وهي كما تلاحظ نقض صفات المدح .

كقول طرفة بن العبد

بَطيءٍ عَنِ الجُلّى سَريعٍ إِلى الخَنى   ذَلولٍ بِأَجماعِ الرِجالِ مُلَهَّدِ

وقول الأعشى

تبيتون في المشتى مِلاء بطونكم وجاراتكم غَرثَى يَبِتْن خَمائصا

والفخر من أهم أغراض الشر الجاهلي ، وهو نوعان فخر قبلي يفخر فيه الشاعر بقبيلته وبأمجادها وأيامها وشرف نسبها كمعلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا
مَتى نَنقُل إِلى قَومٍ رَحانا يَكونوا في اللِقاءِ لَها طَحينا
كَأَنَّ جَماجِمَ الأَبطالِ فيها وُسوقٌ بِالأَماعِزِ يَرتَمينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

وفخر ذاتي شخصي كفخر عنترة بنفسه

أَنا العَبدُ الَّذي خُبِّرتَ عَنهُ يُلاقي في الكَريهَةِ أَلفَ حُرِّ
خُلِقتُ مِنَ الحَديدِ أَشَدُّ قَلباً فَكَيفَ أَخافُ مِن بيضٍ وَسُمرِ

وقول بشر الفزاري

فَقُلتُ أَبَت نَفسٌ عَلَيَّ كَريمَةٌ وَطارِقُ لَيلٍ غَيرَ ذاكَ يَقولُ
أَلَم تَعلَمي يا عَمرَكِ اللَهَ أَنَّني كَريمٌ عَلى حينِ الكِرامُ قَليلُ
وَإِنِّيَ لا أُخزى إِذا قيلَ مُملِقٌ سَخِيٌّ وَأُخزى أَن يُقالَ بَخيلُ

وقول حاتم الطائي

أُشاوِرُ نَفسَ الجودِ حَتّى تُطيعَني وَأَترُكُ نَفسَ البُخلِ لا أَستَشيرُها
وَلَيسَ عَلى ناري حِجابٌ يَكُنُّها لِمُستَوبِصٍ لَيلاً وَلَكِن أُنيرُها

والغزل من أهم أغراض الشعر الجاهلي وكانوا يستهلون به قصائدهم يقول النابغة متغزلاً :

غَرّاءُ أَكمَلُ مَن يَمشي عَلى قَدَمٍ حُسناً وَأَملَحُ مَن حاوَرتَهُ الكَلِما

ويقول زهير بن أبي سلمى :

دارٌ لِسَلمى إِذ هُمُ لَكَ جيرَةٌ وَإِخالُ أَن قَد أَخلَفَتني مَوعِدي

إِذ تَستَبيكَ بِجيدِ آدَمَ عاقِدٍ يَقرو طُلوحَ الأَنعَمينِ فَثَهمَدِ

ويقول عبد الله بن العجلان النهدي

قَد طَالَ شَوقِي وَعَادَني طَرَبِي مِن ذِكرِ خَودٍ كَريمَةِ الحَسَبِ

غَرّاءُ مِثلُ الهِلاَلِ صُورَتُها أَو مِثل تمثالِ صُورَةِ الرُّهُبِ

نظرة سريعة على الشعر الجاهلي

ولو ألقينا نظرة سريعة على الشعر الجاهلي نجد أن " تقلب إيقاع الزمن ، ما بين الجدب والخصب ، وما بين حل الحبيبة وترحالها ، وما بين رحلتي الشتاء والصيف ، يجعل حياة الجاهلي متأججة دائما بين قطبي التعارض . وفخاخ العدم تحيط به من كل جانب ، ولذلك فإن نشوة التمرد بالحب والخمرة والفروسية ، وصوفية الخضوع تلتقيان في روحية الشاعر الجاهلي لتتكاملا وتعبِّرا عن طرفي التجربة اليومية .

ومن هذه النقطة يمكننا أن نفهم هذا التطرف الذي طبع الموضوعات التقليدية في الشعر الجاهلي : الكرم إلى أقصاه ، والشجاعة إلى أعنف صور البطولات ، والصبر على الشدائد ، والحب إلى درجات الوله والضياع ، وبقية المعاني المحركة لوجدان الإنسان الجاهلي ، من تضحية وثأر وأمانة ...وغيرها "[١]

---

(١) " موسوعة الشعر العربي " مرجع سابق ص ١٦

المبالغة في البلاغة العربية

والعربي –كما سبق أن قلنا – عصبي المزاج ، سريع الغضب ، متوقد الحماسة ، ومن كان هذا طبعة فإن تصرفاته يعوزها التروي والهوادة والتعقل ، ويميل دائماً إلى صيغ المبالغة لأنه لا يعرف درجات الوسط لذا فإن الشاعر العربي دائماً ما يستتفر " جميع صيغ المبالغة في أفخم موسيقى خطابية ، ليوحي باليقين المعاكس ، فهو يستنجد بإرادة البطل ضدَّ الدهر بشجاعة شبه مستحيلة ضد خطر النقص والضعف والذل ، الخطر الممكن ، والمتحقق كل لحظة .

المبالغة في بلاغة القصيدة العربية لم تأت نتيجة ابتكار البلاغة النظرية ولكنها بلاغة الحدية ، في الحكم الواقع وعظمه فلقد كان العدم اليومي ، وهو النقيض المقابل لحيوية الإنسان الصحراوي المترحل السائح بين المفازات وكان هذا العدم يولد الشعور برخوة الإنسان وكان على هذا الإنسان أن يلجأ إلى دفاع الخيال والفعل معا . ومن الفعل تولدت كل الفروسية الجاهلية ومن الخيال تولد الشعر ، وكانت الحماسة، عاطفية تارة ووجودية شمولية تارة أخرى ، هي المحرك الكياني لجوهر الحيوية العربية كلها " [١]

فالعربي يجنح للمبالغة والخيال والعبارات الخطابية القوية ليتقوى بها على ضعفه وذله ، وليقنع الآخرين بأنه هو الأقوى والأشجع إن لم يكن واقعا فقولا أو خيالا ، خطابة أو شعراً ، ودونك هذه الأمثلة الدالة على ذلك .

---

(١) " موسوعة الشعر العربي " مرجع سابق ص ١٧

يقول عمرو بن كلثوم

مَلَأنا البَرَّ حَـتّى ضاقَ عَنّا   وَنَحنُ البَحرُ نَملأُهُ سَفينا
إِذا بَلَغَ الفِطـــــامَ لَنا وَليدٌ   تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينا
لَنا الدُنيا وَمَن أَضحى عَلَيها   وَنَبطِشُ حينَ نَبطِشُ قادِرينا

أما الحضر من العرب فعددهم قليل قياسا بالبدو ، وأرق منهم طبعاً ، وأقل غارة ، يعملون إلى جانب الرعي بالتجارة وقليل منهم من يعمل بالزراعة .

سمات الطبيعة العربية

مما سبق يمكن أن نخلص إلى أن طبيعة العربي تتسم عامة بـ :

أ- السمات الإيجابية :

١- الشجاعة في الحق والباطل .
٢- البعد عن الترف وتحمل شظف العيش وقسوة الطبيعة .
٣- نصرة العشيرة ظالمة أو مظلومة .
٤- إكرام الضيف قريباً أو غريباً .
٥- الفصاحة والبلاغة لنصرة الحق أو الباطل .
٦- المروءة والشهامة وإغاثة اللهفان .

ب- السمات السلبية في شخصية العربي :

١- احتقار الحضارة التي أساسها العمل البناء : زراعة وصناعة وعمران ، وكلها تحتاج إلى استقرار وتعاون ونظام وقانون عام وكل هذه العوامل كانت حياة العرب تفتقر إليها جميعاً لذا لم يكن لهم حضارة عريقة كالتي قامت في مصر والعراق والفرس والروم والصين .

٢- العيش على ما تجود عليه الطبيعة به فإن أقفرت لجأ إلى السلب والنهب والحرب .

٣- نفوره من النظام والقانون العام والوحدة وميل إلى الفردية والفوضى والفرقة .

٤- الإيمان بدين الآباء والأجداد وإن كانت عبادة الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً .

٥- عبادة العادات والتقاليد التي ورثوها عن الآباء والأجداد وإن كانت فيها هلاكهم .

٦- عصبيون ، يقدمون الانفعال على الحكمة ، والطيش على العقل.

سمات العرب من أشعارهم

ولقد تبدَّت خصال العرب جليَّة في أشعارهم إذ كان الشعر ديوانَ العرب خاصة والمنظومَ من كلامها، والمقيِّدَ لأيامها، والشاهد على أحكامها. حتى لقد بلغ من كَلَف العرب به وتَفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تَخيَّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القبَاطيّ المُدرجة، وعَلّقتها بين أستار الكعبة. [١]

ومما يؤكد انعدام فكرة المواطنة عند العرب ، فالناس إما سادة أو عبيد قول الحارث بن عباد :

قَد مَلَكناكُمُ فَكونوا عَبيداً ما لَكُم عَن مِلاكِنا مِن مَجالِ

وهم يعدون الخضوع لسلطان ملك خزي وعار لذا فهم دائماً ما يؤكدون في أشعارهم عدم خضوعهم لسلطان الملوك ، وأنهم كثيرو المنازلة لهم والتغلب عليهم.

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي " العقد الفريد " ج ٢ ص ٣٠٦

عمرو بن كلثوم

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِـــــوالٍ   عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا

وَسـَيِّدِ مَعشَـــرٍ قَد تَوَّجوهُ   بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا

تَرَكنا الخـَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ   مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صـــــفونا

إِذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفاً   أَبَينا أَن نُقِرَّ الـذُلَّ فـينا

نُسَــمّى ظـالِمينَ وَما ظُلِمنا   وَلكـِنا سَـــنَبدَأُ ظـالِمينا

ويقول المهلهل بن ربيعة :

لَم نَرَ الناسَ مِثلَنا يَومَ سِرنا   نَسلُبُ المُلكَ غُدوَةً وَرَواحا

ويقول امرؤ القيس :

فَما مُلكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى   بِمُقتَدِرٍ وَلا مُلكُ الشَآمِ

أَصَدَّ نِشاصِ ذي القَرنَينِ حَتّى   تَوَلّى عارِضُ المَلِكِ الهُمامِ

ويقول عنترة

وَسائِلي السَيفَ عَنّي هَل ضَرَبتُ بِهِ   يَومَ الكَريهَةِ إِلا هامَةَ المَلِكِ

إن مجد العربي الذي يفاخر به ، والذي يظل العمر كله يدافع عنه ، ويورِّثه لأبنائه من بعده هو السيادة والحريَّة التي تتنافى مع الإذعان لأي حاكم وإن كان من بني جنسه ، والخضوع لأي قانون وإن كان فيه مصلحته .

إن روح الفرديَّة ، والأنا المتضخِّمة ، والكبرياء الزائفة ، وغمط أصحاب المواهب هي التي جعلت العربي يرفض أن يعيش في مجتمع الحكم فيه لغيره وإن كان أهلٌ له ويعتبره عبوديَّة ومذَّلة ، ويفضل شق عصا الطاعة والعزلة ويعتبر ذلك سيادة وعزة !!

يقول زهير بن جناب الكلبي

أَبَنِيَّ إِن أَهلِك فَإِنّ ي قَد بَنَيتُ لَكُم بَنِيَّه

وَجَعَلتُكُم أَبناءَ سا داتِ زِنادُكُم وَرِيَّه

فالسيادة لدي العربي تعني التمرُّد على القوانين العامة ، والتمرُّد على نظام الدولة ، وعدم الخضوع للأحكام الملوك . مما أدى إلى تفكك المجتمعات العربية ، وضعفها ، وتخلفها ، وعدم قيام أي حضارة على أرضها ، لأن الوحدة والتعاون والنظام هي عماد أي حضارة والعربي يفتقر إليها جميعا .

إن أكبر آفة ابتلي بها العرب قديماً وحديثا آفة الفرقة والصراع على الحكم ، والخروج على الحكام ، وغلبة روح الفردية ، والخروج على النظام العام ، وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة .

وبرغم أن هذه الصورة التي عرضناها هي صورة البدو القديمة إلا أن البدو ما زالوا يحافظون عليها حتى اليوم رغم معطيات الحياة المدنية الحديثة وبعض مظاهر الرفاهية والترف التي تقدمها حكومات السلطة المركزية إلا أن البدوي لا زال يحافظ على نمط حياة أجداده الأوائل !!

***

أحوال الأمم عند بعثة النبي

وبرغم الصفات التي اتسم بها العرب –وذكرنا أهمها في الفصل السابق – إلا أن حكمة الله تعالى قضت أن يجعل آخر رسالات السماء تتزل على محمد بن عبد الله العربي القرشي ، وأن يحمل العرب هذه الرسالة الخاتمة لينشروها في الآفاق وينافحوا عنها ويدخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجاً ، وتصير كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فترى لماذا اصطفى الله تعالى العرب دون سائر الأمم يبعث منهم رسول آخر الزمان ؟ ولماذا اصطفى من العرب كنانة ؟ ولماذا اصطفى من كنانة مناف ؟ واصطفى من كنانة قريشاً ؟ واصطفى من قريش بني هاشم ؟ واصطفى محمداً ﷺ من بني هاشم ؟

يقول النبي في صحيح مسلم وغيره : " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ "

لماذا بعث الله آخر أنبيائه من العرب ؟

بداية لا بد أن نقرر أن الله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]

فالله تعالى لا يسأله سائل عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء ... لأنه هو الرب المالك المتصرف في شئون خلقه ، وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده .

وكذلك الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ومن يصلح لها من خلقه .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣]

لكن نحن نحاول أن نبحث عن الحكمة ونستكنه سر هذا الاختيار .

ونبدأ بالإجابة عن السؤال الأول ، بماذا امتاز العرب قوم خاتم الرسل الكرام ، فَفَضَلوا به غيرهم من الأقوام ، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام ، الذي اشتمل عليه دين الإسلام ، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام ، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام ؟

الجواب : كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرية الشخصية، أيام كانت الأمم تَرْسُفُ في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية ، محظورًا عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية ، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية ، كما حظرت عليها حرية التصرفات المدنية والمالية .

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال ، أيام كانت الأمم مذللة مُسَخَّرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال ، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم ، ويُصرفونها كما يصرفون السوائم لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب ، ولا إرادة لها في عمل ولا كسب .

كانت العرب ممتازة بعزة النفس ، وشدة البأس ، وقوة الأبدان ، وجرأة الجنان ، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرءوسين أضعفهم البؤس والشظف وسادة أبطرهم بغيُ الاستبداد ، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد .

كانت العرب ممتازة بكثير من الفضائل الموروثة والكسبية . كقِرَى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ، والنجدة والإباء ، والسخاء ، والإيثار ، وحماية اللاجئ ، وحرمة الجار . أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية والأنين من ثقل الضرائب والأتاوى الأميرية ، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عمَّ الراعي والرعية . (1)

الإمبراطورية الصينية قبل الإسلام

لقد كانت الإمبراطوريات المعاصرة للإسلام ، الصين والفرس والروم ، قد استنفدت مقومات نهضتها وبقاء سيادتها ، ولم تعد صالحة لحمل رسالة آخر الزمان بعدما فسدت فطرة حكامها وانتكست أخلاقهم وتفشى في شعوبها الوهن : حب الدنيا وكراهية الموت ، وشاع فيهم خنا القول والفعل ، والإسراف في الترف واللهو .

فقد دخلت الحضارة الصينية بعد زوال سلطة سلالة هان سنة ٢٢٠م في دور من الركود والانحطاط، وكان ذلك نتيجة للفوضى التي عمَّت البلاد في الداخل والأخطار التي كانت تهددها من الخارج، فقد ضعفت الحكومة المركزية وأعلن عدد من حكَّام الأقاليم استقلالهم، كما أن قبائل المغول هاجمت الصين واحتلت القسم الشمالي منها.

---

(1) رشيد رضا من مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

دامت هذه الحال أربعمائة سنة تقريبًا، ركد فيها النشاط الحضاري ودخلت الصين في عهد يمكن وصفه بالقرون المظلمة تشبيهًا بالقرون المظلمة التي سادت أوروبا بعد غزوات الهمج وسقوط روما في أيديهم .[١]

دولة الفرس وديانتها قبل الإسلام

والفرس فلم تكن قط في أي عصر من عصور تاريخها قبل الإسلام دولة ثابتة الحدود إنما كانت حدودها تتسع أحياناً في عصور الملوك الأقوياء، وتتقبض في عصور الضعفاء وهم الأكثرون، وعماد القوة العسكرية الإيرانية كان جماعات مرتزقة من قبائل تركية إلى جانب قبائل الهضبة الإيرانية نفسها. وكان الأكاسرة يسلطون هذه الجماعات المقاتلة على البلاد لإرهاب أهلها وإرغامهم على دفع الجزية والإتاوات.

وبالإضافة إلى بطش الأكاسرة وطغيانهم وإرهابهم الشعوب كانوا مجوساً يعبدون النار في آخر عهدهم فبرغم أن ديانتهم الزرادشتية يعتبرها الكثيرون من الديانات التوحيدية المعروفة في العالم، تأسست منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة فيما يعرف اليوم بدولة إيران على تعاليم زرادشت الذي يزعم أتباعه أنه نبي دعا إلى الإيمان بوجود إله واحد أزلي هو " اهورامزدا " بمعنى "الإله الحكيم" وهو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبداً . كما بشّر زرادشت بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة، النار والشمس وهما رمزا المجوسية، ولذلك فإن النار مقدسة لكونها تمثيل عن نور أو حكمة اهورامزدا ويحرص

([٢]) شفيق جحا ومنير البعلبكي وبهيج عثمان " المصور في التاريخ " فصل الحضارة الصينية: عهد سلالة هان ج٩ ص ٤٥٥ دار العلم للملايين، بيروت .

الزرادشتيون على ألا تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسرونه على أن الزرادشتيين يعبدون النار.

أخرج عبد الرزاق في المصنف عن علي بن أبي طالب أنه سُئِل عن أخذ الجزية من المجوس؟ فقال : " والله ما على الأرض أحد أعلم بذلك مني إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه وعلم يدرسونه .. ثم أسرى على ما في قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء ."

وذهب جمهور العلماء إلى أن المجوس وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

وسواء أكانت الزرادشتية ديانة سماوية توحيدية في أصلها أم كانت ديانة وضعية ، وسواء أكانت النار والشمس ترمزان لقوة الله أم كانتا معبودتين من دون الله فإن المؤكد إن الفرس في آخر عهدهم قبل أن يفتح المسلمون بلادهم وينشروا فيها الإسلام لم يعرف عن غالبيتهم إلا عبادة النار وقلة مضطهدة منهم كانوا نصارى ؛ وهذا ما حدا بسلمان الفارسي رضي الله عنه أن يترك عبادة النار ويسعى خلف الدين الحق حتى هداه الله إلى الإسلام .

سلمان الفارسي يروي قصته مع الإسلام

يقول سلمان : " كُنْتُ رَجُلاً فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا، يُقَالُ لَهَا: جَيٌّ، وَكَانَ أَبِى دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ (رئيسُ القَرْية)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّاىَ، حَتَّى حَبَسَنِى فِى بَيْتِهِ أَىْ مُلازِمَ النَّارِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِى الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِى يُوقِدُهَا لاَ يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً ...

مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِى كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِى مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ(أبوه) : أَىْ بُنَىَّ لَيْسَ فِى ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَلاَّ وَاللَّهِ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، قَالَ: فَخَافَنِى فَجَعَلَ فِى رِجْلَىَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِى فِى بَيْتِهِ .. ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِى أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ (خاتم النبوة) الَّذِى وَصَفَ لِى صَاحِبِى، فَلَمَّا رَآنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّى أَسْتَثْبِتُ فِى شَىْءٍ وُصِفَ لِى، قَالَ: فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِى .. " [صححه الألباني]

قادة الفرس وجند الإسلام

والذي يؤكد فساد أكاسرة الفرس وكبرائهم وعدم أهليتهم لأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين نكتفي بذكر موقف كسرى من دعوة الإسلام ، ومقارنة بين قادة جنده وجند المسلمين العرب .

كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وبعث الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي فيه " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيّاً أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس " [صححه الألباني]

وبرغم الدعوة الكريمة من النبي لكسرى فإن كسرى مزَّق كتاب رسول الله ، ويروى أن رسول الله ﷺ لما بلغه ما صنع كسرى أبرويز بكتابه قال : مزق الله ملكه .

هذا موقف ملك الفرس من الحق إذ جاءه ، وموقفه من رسالة السماء عندما بلغته فبدلاً من أن يتدبر الأمر ويستشير أهل الرأي ويقول لهم كما قالت ملكة سبأ عندما بلغتها رسالة سليمان : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٢٩] وإن لم يؤمن بما جاء في الرسالة فعلى الأقل يحترم الرسالة ويقدِّر من أرسلها والرسول الذي حملها ، ولكنه أخذته العزة بالإثم فمزق الرسالة !!

أما المقارنة بين قادة الفرس وجند العرب المسلمين فتتجلى في الموقف التالي الذي ذكره المؤرخون .

لما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه.

فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز.

فقال له رستم: فما هو ؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا ؟ ! وأي شيء أيضاً ؟ قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله .

قال: وحسن أيضاً . وأي شيء أيضاً ؟ قال: والناس بنو آدم وحواء ، فهم أخوة لأب وأم، قال وحسن أيضاً .

ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضاً.

قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه .

قالوا: ثم بعث إليه سعدٌ رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم ؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن

قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم ! كم أحب إليكم ؟ يوماً أو يومين ؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت ؟ قال ! لا: ولكنْ المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟

فقالوا معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلاً فبعث إليهم حذيفة بن محصن فتكلم نحو ما قال ربعي.

وفي اليوم الثالث المغيرة بن شعبة فتكلم بكلام حسن طويل.

قال فيه رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخولكم أرضنا كمثل الذباب رأى العسل. (١)

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ٧ ص ٤٦ ، ٤٧ .

أعرفتم لماذا لم يختر الله تعالى نبي آخر الزمان من الفرس واختاره من العرب .

الإمبراطورية الرومانية والاضطهاد السياسي و الديني

فإذا جئنا إلى الإمبراطورية الرومانية فسنجد إنها لم تكن أفضل حالاً من الفرس فقد كانوا طغاة باطشين يسومون البلاد التي احتلوها سوء العذاب ينهبون ثرواتها ويجبرونها أهلها على عبادة إمبراطورهم ، حتى بعد أن تنصَّروا أفسدوا دينهم وحرَّفوه وحاولوا فرضه بالقوة على من خالفهم مذهبهم الكاثوليكي ، ويكفي أن نعرف سيرتهم في المصريين لنعرف مدى ما وصلوا إليه من كفر وطغيان .

لقد بدأ الاضطهاد الرسمي للمسيحيين في عصر الإمبراطور نيرون (٥٤- ٦٨م) الذي قام بإحراق مدينة روما ثم ألصق تهمة إحراقها بمسيحيي روما ، وانهال الإمبراطور وجنده وأتباعه على المسيحيين قتلاً وتنكيلاً في أبشع صورة.

وبعد ذلك بفترة تابع الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (١٩٣-٢١١ م) موجة الاضطهاد ضد المسيحيين ؛ فقد أصدر قراراً بضرورة سجود جميع المواطنين في الولايات الرومانية لتمثاله وإحراق البخور عند قدمي التمثال ، وكان عقاب من يعصي الأوامر الإمبراطورية الموت بقطع الرأس ، أو بتقديمه طعاماً للأسود ، أو بالحرق حيّاً ، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق المدرسة الدينية المسيحية في الإسكندرية ونكَّل بالمسيحيين المصريين تنكيلاً ، وظلَّ الأمر على نفس الحال التعسة إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥ م) الذي عرف بعصر

الاضطهاد الأكبر للمسيحيين خاصة مسيحيي مصر ؛ فقلد أصدر دقلديانوس مرسوماً إمبراطوريّاً بهدم الكنائس ، وحرق الكتب المقدسة ، وإعدام كل من يتبع التعاليم المسيحية سرّاً أو جهراً وقد بلغ عدد شهداء المسيحيين في مصر ١٤٤.٠٠٠ شهيد ، ويقدر بعض الدارسين هذا العدد بحوالي ٨٠٠.٠٠٠ شهيد ، وبسبب هذا الاضطهاد الوبيل اعتبر المصريون أول سنة من حكم الإمبراطور دقلديانوس وهي سنة ٢٨٤ م بداية التقويم القبطي ، وعرف هذا التاريخ باسم " عام الشهداء " . [١]

صور المقاومة المصرية للاضطهاد الروماني

لقد قاومت مصر الغزاة الرومان بكل ما تيسر لها من أسلحة : قاومتهم بالعتاد الحربي ، واستماتت في الدفاع حتى إذا ما غُلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التي جعلت من الوادي جحيماً لا يطاق ، فإذا ما أخمدت الثورة لجأت إلى حرب العصابات ، فإذا ما أعوزها السلاح لجأ فلاحوها إلى العصيان المدني ، أو الإضراب العام أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار في الأدغال أو مجاهل الصحراء .

فإذا ما أعيتها الحيل لجأت إلى سلاح آخر بتَّار : لجأت إلى المقاومة السلبية فبذرت بذور الكراهية للمحتلين عن طريق المنشورات السياسية أو رفضت التعاون مع الغاصبين ، ولم تتأثر بثقافتهم أو تأخذ بأساليب معيشتهم أو تؤمن بآلهتهم بل اتخذت من تراثها الموغل في القديم ،

---

(١) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مطابع الأهرام التجارية . ص ٢٣٩ .

وديانتها الأصيلة وكبريائها الوطني دروعاً تتقي بها شتى المؤامرات التي كانت كلها بالرغم من طول فترات الاحتلال كالزبد الطافي الذي يذهب هباءً . (١)

* * *

(٢) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " ص ٢٠٠

لماذا نبي عربي وليس أعجمياً ؟

أظن عرفت الآن ، عزيزي القارئ ، لماذا لم تكن الإمبراطوريات : الصين والفرس والروم أهلٌ لأن يبعث منهم نبي آخر الزمان ؟

لكن إذا لم يبعث الله تعالى نبي آخر الزمان في مصر صاحبة أول حضارة في التاريخ أو العراق أو الشام وهم أصحاب حضارات وأصحاب علم .

الحقيقة أن هذه الشعوب فيها من الرجال والعلم والقيم الحضارية ما ينهض بأي دين وقد نهضوا بالإسلام بعد الفتوح وزوال الاحتلال الفارسي والروماني الذي كان يكبلهم بل يستعبدهم .

لماذا نبي عربي ؟

قد رأينا ما فعله الرومان بالمصريين من اضطهاد ديني وطغيان سياسي ولو كان قد بعث فيهم نبيٌّ آخر الزمان للقي العنت والاضطهاد ما لقيه عيسى عليه السلام إبان بعثته فقد تحالف الرومان مع اليهود على قتله وصلبه ، ولولا حماية الله له لتمكنوا منه .

فلم يبق إلا العرب لينهضوا بالمرحلة الأولى للدعوة المحمدية الخاتمة مرحلة الدعوة والجهاد والصبر والتحمل .

والدعوة تحتاج لبلاغة وفصاحة وهم كانوا أربابها ، والجهاد لنصرة الدين وتطهير البلاد من الإمبراطوريات الغاشمة المستبدة والجهاد يحتاج

لبأس وقوة وكان العرب حينئذ أقدر الناس عليه حيث لم يفسدهم الترف والإسراف في الملاهي ، والجهاد لا يكون بالسلاح فقط إنما بالمال أيضاً وجهاد المال يحتاج إلى كرم وهو يكاد يكون قاصراً عليهم حينئذ .

أما أصحاب الحضارات العظيمة القديمة فسوف يأتي دورهم بعد ذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[الجمعة: ٢، ٣]

فالله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الذين لا يقرءون، ولا كتاب عندهم ولا أثر لرسالة دينية لديهم، رسولاً منهم إلى الناس جميعًا، فهم أجدر الناس على حمل رسالة الإسلام إلى غيرهم بعد أن يطهرهم الله تعالى من العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة، ويعلِّمهم القرآن والسنة، ثم يأتي دور مرحلة الإسلام الحضاري بعد مرحلة الإسلام الدعوي الجهادي وسوف يقوم به مع العرب قوم آخرون { وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

مؤهلات العرب لحمل رسالة الإسلام

لقد كانت العرب وحدها تملك مقومات مرحلة الإسلام الأولى مرحلة الدعوة والجهاد بالنفس والمال والصبر والمثابرة والاحتمال فقد كانت العرب قد بلغت أَوْج الكمال ، في فصاحة اللسان وبلاغة المقال ، وكادت تتحد لغات قبائلها أو لهجاتها العربية ، وتسود المُضَرِيَّة منها على الحِمْيَرِيَّة ، بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية ،

والأسواق الأدبية ، فاستعدت بذلك للوحدة القومية وللتأثر والتأثير بالبراهين العقلية والمعاني الخطابية والشعرية وللتعبير عن جميع العلوم الإلهية والشرعية ، والفنون العقلية والكونية أيام كانت الأمم تنفصم عُرَى وحدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية ، وتتفرق وشائجها بالعداوات الجنسية ، وتتمزق دولها بالحروب الأجنبية والأهلية .

فتلك أمهات مزايا الأمة العربية ، التي أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية ، والسيادة الدينية والمدنية ، وجملة مزاياهم أنهم كانوا أسلم الناس فطرة ، على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة .

أما اصطفاء الله لكنانة الشيخ الجليل ، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل ، فيفسره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله ، ومنها أنه كان على سنة جده إبراهيم الخليل لا يأكل وحده . وقد نقل الحافظ في شرح البخاري أنهم كانوا يحجون إليه لعلمه وفضله . ومما يؤثر عنه من الحِكَم الجلية ، كما روي في السيرة الحلبية : رب صورة تخالف المخبرة ، قد غرت بجمالها ، واختبر قبح فعالها ، فاحذر الصور ، واطلب الخبر . فهذا دليل على ما وصف به من العلم والحكمة ، وأما حج العرب إليه فإنه دليل على أنه كان بمثابة التعارف ، ومعقد رابطة الاجتماع والتآلف .

لماذا اصطفى الله قريشاً من العرب ؟

وأما اصطفاء الله تعالى لقريش الميامين الغُرُّ ، وهم ذرية فهر بن مالك ، وقيل : جده النضر . فقد كان بما آتاهم الله من المناقب العِظَام، ولا سيما بعد سكنى مكة وخدمة المسجد الحرام ؛ إذ كانوا

أصرح ولد إسماعيل أنسابًا ، وأشرفهم أحسابًا وأعلاهم آدابًا ، وأفصحهم ألسنة ، وهم الممهدون لجمع الكلمة . فقد نقل أهل السير أن مالك بن النضر كان ملك العرب ، وأن كعب بن لؤي كان يجمع قومه ويعظهم يوم الجمعة ، وكانوا يسمونه يوم العَرُوبَة ، وأنهم كانوا يُجِلُّونه في حياته ، ثم إنهم أرَّخُوا بموته ، وأن قُصَيًّا هو الذي جمع شمل قبائل قريش بمكة؛ إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونه من خزاعة . وقد تَمَلَّك عليهم فَمَلَّكُوه ، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه . وذلك أنه كان يراه دينًا في نفسه ، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده (قال ابن إسحاق) وهو الذي أنشأ الندوة ، وجعل بابها إلى الكعبة ، وقد أجمعت قريش على طاعته وحبه ، فكانت إليه الحِجَابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، ثم وزعت المناصب بعده على الزعماء .

وأفضل من ذلك كله ما وُفِّقُوا له في حداثة الرسول من التحالف الذي عُرِف بحلف الفضول ؛ إذ تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلومًا إلا قاموا معه ، وكانوا عونًا له على من ظلمه ، إلى أن تُرَدَّ مظلمته . وفي حديث الزبير بن العوام عند الطبراني ، ومثله حديث أم هانئ في معجمه الأوسط كتاريخ البخاري (فضَّل الله قريشًا بسبع خصال : فضَّلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قرشيٌّ وفضَّلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون . وفضَّلهم بأنه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾[قريش:١] وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة ، والحجابة والسقاية) .

كان ذلك كله من ارتقاء قريش واستعداد العرب للإسلام ، ولكن هذه القوى المعنوية كلها وجهت لمعاداته عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأما اصطفاء الله تعالى لبني هاشم ، فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم ، فقد روى أبو نعيم من حديث المستورد الفهري رضي الله عنهُ : (إن فيهم خصالاً أربعًا : إنهم أصلح الناس عند فتنة ، وأسرعهم إقامة بعد مصيبة . وأوشكهم كَرَّةً بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ويتيم ، وأمنعهم من ظلم الملوك) . وكان جدهم هاشم صاحب إيلاف قريش ، الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف ، وروي أنه هو الذي سَنَّ الرحلتين ، وأخذ العهود بها من الحكومتين ، حكومة اليمن العربية ، وحكومة الشام الرومية ، فاتسعت بهما معيشة قريش ، وأمنوا في تجارتهم من كل خوف ، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن ، بما عُدت به التجارة من أشرف أعمال الإنسانية ، وإنما أطلق لقب هاشم على عمرو بن عبد مناف ؛ لأنه أول من هشَّم الثريد للمسنتين العجاف ، وكان يُشبع منه كل عام أهل الموسم كافة ، كما أشبع منه قومه في سنة القحط والمجاعة ، على أن مائدته كانت منصوبة لا تُرْفَع في السراء ولا في الضراء ، وزاد عليه ولده عبد المطلب فكان يُطعم الوحش وطير السماء ، وكان أول من تحنث بغار حراء ، وروى أنه حرَّم الخمر على نفسه ، وجعل ماء زمزم للشرب فحرَّم أن يُغْتَسَل به .

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه الأخلاق العلية ، والفواضل والفضائل النفسية ، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكِبْر والأَثَرَة والأمور الحربية ، ولذلك غلبوا على الرياسة حتى بعد الإسلام ، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام ، فهو أنفى للشُّبَه عن رسالته عليه أفضل الصلاة والسلام . (١)

---

(١) رشيد رضا من مقدمة " رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف " مجلة النار ج ١٩ ص ٤٠٨

لماذا اصطفى الله تعالى محمداً من بني هاشم ؟

أما لماذا اصطفى الله تعالى محمداً من بني هاشم فيتضح من حديث أبي سفيان بن حرب ، قبل إسلامه ، مع قيصر الروم .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلامِ وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ وَكَانَ قَيْصَرُ لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَاءَ شُكْرًا لِمَا أَبْلاهُ اللَّهُ فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَهُ الْتَمِسُوا لِي هَا هُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لِأَسْأَلَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ : أَنَّهُ كَانَ بِالشَّأْمِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدِمُوا تِجَارًا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَوَجَدَنَا رَسُولُ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّأْمِ فَانْطُلِقَ بِي وَبِأَصْحَابِي حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ فَأُدْخِلْنَا عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا قَالَ مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ هُوَ ابْنُ عَمِّي وَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي فَقَالَ قَيْصَرُ أَدْنُوهُ وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لِأَصْحَابِهِ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ عَنْ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُ كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ قَالَ

فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ قُلْتُ لَا فَقَالَ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لَا قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ قُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لَا وَنَحْنُ الْآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ نَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا أَنْتَقِصُهُ بِهِ لَا أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ قُلْتُ كَانَتْ دُوَلًا وَسِجَالًا يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى قَالَ فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ قَالَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تَخْلِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ

وَقَاتَلَكُمْ فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلًا وَيُدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الْأُخْرَى وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ وَسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ قَالَ وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُرِئَ فَإِذَا فِيهِ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ " .

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ قُلْتُ لَهُمْ لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَاللَّهِ مَا زِلْتُ ذَلِيلًا مُسْتَيْقِنًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ قَلْبِي الْسْلامَ وَأَنَا كَارِهٌ " [متفق عليه]

***

العرب والإسلام

عقائد ومفاهيم جديدة

لقد جاء الإسلام بمعتقدات ومفاهيم جديدة تخالف تلك المفاهيم التي سادت العصر الجاهلي ، فقضى على عادات الجاهلية مثل :عبادة الأصنام والأوثان ، ووأد البنات ، والعصبية القبلية ، والحمية الجاهلية ، ونصرة الأخ الظالم ، والمفاخرة بالأنساب والأحساب ، والخروج على الجماعة ، والسلب والنهب ، والإغارة على الآمنين ، واحتقار العمل ، ودعا الإسلام العرب إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبجميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى محمد ﷺ وأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وألف بين قلوبهم .

كيف عرض جعفر بن أبي طالب الإسلام على النجاشي ؟

وكم كان جعفر بن أبي طالب بليغاً وهو يشرح للنجاشي ملك الحبشة قصة إسلام السابقين إلى الإسلام من المهاجرين فقال: " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار

والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قال : فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك " (رواه أحمد)

والمتدبر لاختيار الله تعالى العرب لنشر رسالته يجد أنهم أنسب الخلق جميعاً لحمل الرسالة الخاتمة بعد أن استل الإسلام من السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار سخائم قلوبهم ، وهذَّب سوء طبعهم ، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلهم راشدين ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

[الحجرات : ٧]

فالمؤمنون العرب – بعد أن هذَّب الإسلام طباعهم – صاروا أقدر الأمم على حمل رسالة آخر الأنبياء والمرسلين تبليغها لأن نشر الدعوة كان يحتاج إلى جانب الإيمان الشديد ، شجاعة ، وكرماً ، وبلاغة ،

وإغاثة الملهوف . شجاعة للدفاع عن هذه العقيدة ضد أعدائها الذين يقفون في سبيل انتشارها ، وكرماً في تجهيز هذه الحروب المقدسة ، وبلاغة في بينان هدي ذلك الدين القيم ، وإغاثة المتلهفين إلى الدين الحق المتضورين تحت نير استبداد الحكام ، وفساد الأديان ، وقد اجتمعت هذه الخصال جميعها في العرب بعدما وجهتها تعاليم الدين الحنيف وجهتها الصحيحة .

لماذا لم يؤمن أئمة الكفر في قريش ؟

إن أئمة الكفر من سادة العرب لم يؤمنوا برسالة الإسلام للأسباب رغم يقينهم بصدق النبي ، صدق دعوته ، وإعجاز القرآن الذي أنزل عليه .

﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣]

وعن أبى يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً ؟

المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم.

والمعنى : إن هؤلاء الكفار يا محمد لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أي نفى ما في القلب ثبوته ، أو إثبات ما في القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .

وقال سبحانه { ولكن الظالمين } ولم يقل (ولكنهم) ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذي استقر في نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب . [١]

لقد عرف الذين كفروا برسول الله من سادة قريش صدق النبي وحقيقة رسالته – ما في ذلك ريب – ولكن بسبب ظلمهم واتباعهم أهواءهم والحسد الذي ملأ قلوبهم والتمسك بالسلطة الزمنية أصرُّوا على الضلال.

كيف عالج الإسلام آفات العرب ؟

إن هناك آفات كانت تشيع في القبائل العربية حضرها وباديتها لعل أهمها معاقرة الخمر واستباحة النساء ولعب الميسر ، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان ، وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم ، وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها وقد شدد في عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهي عن شرب الخمر ولعب الميسر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠]

يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ويحذرهم من تعاطي { الخمر } أي : الشراب الذي يخامر العقل ويخالطه ويمنعه من التفكير السليم { والميسر } أي القمار الذي عن طريقه يكون تمليك المال بالحظ المبني على المصادفة والمخاطرة {والأنصاب} أي : الحجارة التي تذبح عليها الحيوانات تقرباً للأصنام .

([١]) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ١٤٥٢ .

{ والأزلام } أي : السهام التي عن طريقها يطلب الشخص معرفة ما قسم له من خير أو شر . هذه الأنواع الأربعة { رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان } أي : مستقذرة تعافها النفوس الكريمة ، وتأباها العقول السليمة ، لأنها من تزيين الشيطان الذي هو عدو للإنسان ، ولا يريد له إلا ما كان شيئا قبيحاً . [١]

وكما هاجم الإسلام هذه الآفات العربية هاجم قانونهم الدموي المقدس: قانون الأخذ بالثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد .

يقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾
[الإسراء : ٣٣]

وفي الآية تحريم لقتل النفس إلا بالحق و إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه : من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التي منحتها شريعة الله تعالى لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولي المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه في هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه . [٢]

([١]) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ٢٦٢٤
([٢]) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ١٣٦٠

أما استباحة النساء فقد غلَّظ الله عقوبتها في الدنيا ولم يمهل الزاني لعقاب الآخرة حتى لا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، فجعل الله تعالى عقوبة الزاني المحصن الرجم حتى الموت ، وغير المحصن الجلد مائة جلدة على رءوس الأشهاد .

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور : ٢]

الزانية والزاني اللذان لم يسبق لهما الزواج، عقوبةُ كل منهما مائة جلدة بالسوط، وثبت في السنة مع هذا الجلد التغريب لمدة عام. ولا تحملكم الرأفة بهما على ترك العقوبة أو تخفيفها، إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر عاملين بأحكام الإسلام، وليحضر العقوبةَ عدد من المؤمنين؛ تشنيعًا وزجرًا وعظة واعتبارًا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ عز وَجَلَّ أَلاَ وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ إِذَا أَحْصَنَ الرَّجُلُ وَقَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَمْلُ أَوِ الاِعْتِرَافُ فَقَدْ قَرَأْنَاهَا : الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ "

[متفق عليه]

ولم يقبل النبي في إقامة الحد على الزاني شفاعة حتى من أحب الناس إليه .

فلقد أنكر الرسول ﷺ وسلم على أسامة بن زيد ، رغم حبه الشديد له ، أن يشفع في فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية ، التي سرقت

قطيفة أو حليّاً ، وقال له : " « أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حدُودِ اللَّـهِ؟ ». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ :« أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ». [متفق عليه]

كما حرَّم الله تعالى رمي المحصنات دون أن يأتوا بأربعة شهداء وجعل عقوبة من يفعل ذلك الجلد ثمانين جلدة صيانة للأعراض

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

والذين يتهمون بالفاحشة أنفسًا عفيفة من النساء والرجال مِن دون أن يشهد معهم أربعة شهود عدول، فاجلدوهم بالسوط ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، وأولئك هم الخارجون عن طاعة الله.

دخول العرب في دين الله أفواجاً

لما أيد الله دعوته وأيده بمن آمن معه من أهل مكة ونصره بالأنصار في المدينة حتى فتح مكة وعفا عن أهلها دخل الناس في دين الله أفواجاً .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [الفتح : ١– ٣]

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولا واحدًا، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام،

ولله الحمد والمنة. وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: " وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلامِهِمْ الْفَتْحَ فَيَقُولُونَ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلامِهِمْ " (١)

ولماذا خاض السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هذا الصراع المرير مع أهل الكفر ما داموا سيدخلون في دين الله أفواجاً في نهاية المطاف ؟

الحقيقة إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها في بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضيء ، ويهب العقيدة عمقاً وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها . وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق ، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين .

على أنه – حتى إذا لم يقع هذا – يقع ما هو أعظم منه في حقيقته . يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة ، والحرص على الحياة نفسها في النهاية . وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون ، والمؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥١٣

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف ، هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة في كل جيل .

هذا هو الطريق : إيمان وجهاد . . ومحنة وابتلاء . وصبر وثبات . . وتوجه إلى الله وحده . ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم . . [١]

رأي ابن خلدون في العرب

أما ابن خلدون فله رأي شديد العمق – رغم قسوته – في طبيعة العرب ملخصه :

١- توحش طبع العربي وغلظته بسبب شظف العيش وقسوة البيئة التي عاش فيها وبعده عن المدنية .

٢- الرضا بالقليل والقعود عن منافسة الأمم الأخرى .

٣- الركون إلى الكسل وعدم الميل إلى ركوب المخاطر والمحاربة إلا دفاعاً عن النفس أو القبيلة .

٤- عدم التسلط إلا على الضعفاء فإذا ما تمكنوا منهم نهبوا ما في أيديهم .

٥- لا يزالون بالشعوب ضعيفة الحماية ذات العمران حتى يحولوها إلى خراب كما يفعل البدوي بالأرض ذات الكلأ والماء لا يتركها إلا إذا صارت أرضا قفراً جدباء.

٦- منافاتهم للحضارة والعمران فهم لا يحسنون الصناعة ولا الزراعة إنما هم يعيشون على الموارد الطبيعية أو ما يصنعه الغير . إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن الصنائع .

([١]) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ١ ص ١٩٨.

٧- لا يخضعون لسياسة الحكم إلا مكرهين .
٨- متنافسون في الرئاسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره .
٩- لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .
١٠- العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك .
١١- العرب محبون للفخر ، وأن يحمدوا بما ليفعلوا .(١)

ما يُصْلح العرب

عرفنا لماذا اختار الله تعالى العرب ليحملوا أمانة هذا الدين الخاتم ولماذا اصطفى من العرب قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفى محمداً من بني هاشم ، كما عرفنا أن العرب لم يخضعون إلا لله ولم يطيعوا إلا رسوله ولم يتوحدوا إلا على دينه ، فدانت لهم الممالك وخضعت لسلطانهم الإمبراطوريات ، وفي ذلك يقول ابن خلدون بعد أن حدد سمات العربي " إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات

(١) راجع مقدمة بن خلدون فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، وفصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب .

الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فإن كان مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم.(١)

كيف عالج النبي مشكلة البدو ؟

إذا كان الإسلام قد ظهر في أكثر البيئات العربية تحضراً ، في مكة " أم القرى " فلقد ميَّز ، حتى في الإطار الديني بين " البدو " وبين " الحضر " بين الأعراب وبين المتحضرين ، حتى لقد كاد أن يقول قرآنه الكريم : عن السمة الأساسية والغالبة هي ملاءمة " الإيمان " بالإسلام للحضر والحضارة والمتحضرين .. وأنه إذا كان ﴿ مِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : ٩٩]

فإن ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٧]

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ٩٨]

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة : ١٠١]

و ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح : ١١]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج١ ص ١٥١ دار القلم بيروت – لبنان

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤]

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة قد مثلت نجاة نواة الأمة المؤمنة بدينها من الاضطهاد والحصار ، فلقد استمرت الدولة العربية الإسلامية بالمدينة في دعوة الأعراب والبدو إلى الهجرة للمدن والتوطن فيها وفيما حولها ، أي الهجرة إلى التحضر ، وتجاوز النقيض ، الذي هو البداوة حتى لقد اعتبرت السنة النبوية الشريفة رجوع المهاجرة من المدينة إلى البداوة ردَّة فاستخدمت مصطلح " الردة " في وصف العودة عن الحضارة إلى البداوة حتى لقد سأل الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ – ٩٥ هـ) سلمة بن الأكوع مستنكراً : " يَا ابْنَ الأَكْوَعِ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ ؟! .. " (أي ارتددت أعرابيّاً بدويّاً ؟!) فقال له سلمة : " لاَ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لي في الْبَدْوِ." [متفق عليه]

وفي حديث عبد الله بن مسعود : " .. وَالْمُرْتَدُّ أَعْرَابِيًا بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ " [حديث صحيح رواه أحمد والنسائي وغيرهما] (١)

وبهذا حلَّ الإسلام مشكلة البدو بدمجهم في المدن ليتعلموا الحضارة والإسلام وليرق طبعهم وتحسن أخلاقهم ويستبدل شريعة الإسلام العامة بقوانينهم الخاصة ويكون المسلمون أمة واحدة وجسد واحد وبنيان واحد .

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

[آل عمران : ١٠٣]

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص ١٤ ، ١٥ .

فـالله تعـالى يـدعو المـسلمين جميعـاً حـضراً وبـدواً عربـاً وعجمـاً أن يتمـسكوا جميعًـا بكتـاب الله تعـالى وسـنة نبيـه المبينـة لـه ولا يفعلـوا مـا يؤدي إلى فرقتكم. ويعودوا قبائل متفرقة يغير بعضهم على بعض وأمماً متصارعة كما كانوا قبل الإسلام فقد جمع الله قلوبهم على محبته ومحبة رسوله، وألقـى فـي قلـوبكم محبـة بعضكم لـبعض، فأصـبحوا –بفضله– إخوانا متحابين .

هذا هو الحل النـاجع للمسلمين أن ينـصهروا فـي بوتقـة الإسـلام حتـى يصير المسلمون جميعاً رجلاً واحداً كما قال النبي " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ " [متفق عليه]

وإذا كـان هنـاك اخـتلاف طبـاع فيجـب أن يتحـول إلـى اخـتلاف تنـوع وليس اختلاف تضاد بحيث تستفيد الأمة الإسلامية من سائر المواهب والخصائص والسمات لرفعتها وتقدمها فشريعة الإسلام تسعهم جميعاً وتجمع بينهم على الحب والتراحم والتعاطف " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى " [رواه مسلم]

وهكذا اختار الله تعالى العرب الخلَّص عرباً وأعراباً حضراً وبدواً للقيام بالمرحلة الأولى من رسالة خاتم المرسلين مرحلة الدعوة والجهاد بالنفس والمال مرحلة الصبر والمثابرة بعدما طهرهم من آفات الجاهلية وتمسكوا بهدى الإسلام ، ثم تأتي المرحلة الثانية مرحلة الحضارة الإسلامية تلك المرحلـة التـي حمـل عبأهـا الأكبـر شـعوب الـبلاد المفتوحـة الأمـم المستعربة: العراق والشام وإيران ومصر والأندلس ... التي تعلمت اللغة العربية وليست من أصل عربي .

مصر والفتح العربي الإسلامي

لقد ظلت مصر ترزح تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي أكثر من ستة قرون (٣٠ ق.م – ٦٤١م) حتى بدأت حركة الفتوح الإسلامية التي حررت الشام من أيدي البيزنطيين زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي عرف بسماحته وعدله حتى لقب بالفاروق .

وفي عام خمسة عشر للهجرة أرسلَ قادة الجيوش الإسلامية إلى حاكم القدس ليسلمهم مفاتيح القدس بعد أن أراد السلم ، فأبى حاكمها البطريرك صفرونيوس أن يُسلم المفاتيح لأيٍّ من القادة عمرو بن العاص ، أو شرحبيل بن حسنة ، أو أبا عُبيدة عامر بن الجراح ،وقال لهم : لقد قرأنا في كُتبنا أوصافاً لمن يتسلم مفاتيح مدينة القدس ، ولا نرى هذه الأوصاف في أي واحد من قادتكم ، فأرسلوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب وطلبوا منه الحضور ليتسلم المفاتيح بنفسه .

فركب عمر بن الخطاب ومعه غلامه ، وكانا يتناوبان على الدابة بالركوب ويتركانها ترتاح مرة ، وعندما قاربا على مشارف بلاد الشام وقريباً من القدس ، قابلتهم مخاضة من الطين بسيل وادي عمواس ، فقال أبو عُبيدة عامر بن الجراح : أتخوض الطينَ بقدميك يا أمير المؤمنين وتلبس هذه المُرقعة وهؤلاء القوم قياصرة وملوك ويُحبون المظاهر ،وأنت أمير المؤمنين فهلا غيرت ثيابك وغسلت قدميك؟؟ وهذا مقام عزة وتشريف للمسلمين بتسلم مفاتيح القدس.

فماذا قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة ابن الجراح بعد أن ختم أبو عبيدة كلامه بقوله : ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك ! فقال عمر :

أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ! إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله " [صححه الألباني]

بهذه الأخلاق فتح المسلمون العرب القلوب قبل الحدود ، وغزو العقول قبل الممالك ، ولا عجب أن يتطلع أقباط مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب لكي يبعث بمن يخلصهم من مخالب الروم (البيزنطيين) واضطهادهم وفساد موظفيهم وجباة ضرائبهم ، وبخاصة بعد أن سمعوا أن المسلمين لا يتدخلون في عقائد الآخرين ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦]

لقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينية التي سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم . [١]

وفرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنَّا اضطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً

---

[١] د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .

عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السِّخال (١) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (٢)

الأمم المستعجمة

الأمم المُسْتَعْجَمَة هم غير العرب الذين تعرَّب لسانهم ، وهم يمثلون معظم سكان العراق والشام ، وكل سكان : إيران ، ووادي النيل ، وبلاد المغرب العربي ، والأندلس من غير العرب وهم وإن كانوا يتكلَّمون اللغة العربية إلا أنهم ليسوا من أصول عربية ولا يحملون الصفات العربية بل لكلِّ بلد طبيعة خاصة تميزها ، فأهل العرق غير أهل الشام غير المصريين غير بلاد المغرب العربي .

فإذا كان العرب المُسْتَعْرِبة شعوباً بدائية لا أثر للحضارة فيهم ووصفهم القرآن الكريم بالأميين ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة : ٢)

كما سمَّى القرآن الكريم حياتهم قبل الإسلام بالجاهلية ، وجعلها موضع الذم بل جعلها مقابلة للإسلام ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران : ١٥٤]

---

(١)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجم الوسيط .

(٢) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

وأبطل النبي ما كان من عادات قبيحة طفحت بها الجاهلية فقال : " ألاَ إِنّ كُلّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيّةِ تَحْتَ قَدَمَيّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعَةٌ " [رواه مسلم وأبو داود]

" ألاَ إنّ كُلّ مَأْثَرَةٍ كَانَتْ في الْجَاهِلِيّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمَيّ إلاّ مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ " [أبو داود]

كنت أقول إذا كان العرب المُسْتَعْرِبة هم من الشعوب البدائية الجاهلية فإن الشعوب المُسْتَعْجَمَة أصحاب حضارات وعلم وتقدم بل هم مهد الحضارات الإنسانية ، فالحضارة المصرية القديمة ، والحضارية الفينيقية ، والبابلية هي أقدم الحضارات .

لقد قدَّمت الأمة الإسلامية أعظم حضارة عرفها التاريخ جمعت بين الثابت والمتغير جمعت بين شريعة الله ، والإبداع الإنساني ، بين الإيمان والعمل الصالح ، بين العبادة وتعمير الكون .

إن الحضارة بمعناها الحقيقي – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لابد أن يتوفر فيها جانبان :

١– دين سماوي (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنساني : علمي (علوم : إنسانية ، وطبيعية ، ورياضية ، وفلكية ...) وتِقَنِي (اختراعات متطورة) ومادي (تشييد وبناء ...) وفني (أدب ، ورسم ، ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة: فروسية ، رمي ، سباحة ، عدو، مصارعة ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم

في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسدياً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابد أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (١)

إن الذين قاموا بالإسلام وشيدوا حضارته هم المؤمنون من عرب المُسْتَعْرِبة والمُسْتَعْجَمَة الذين تخلَّقوا بأخلاق النبي واتبعوا شرعه ، وصبغهم الإسلام صبغة أخرى غير التي كانوا عليها ، أما من ظلُّوا على ما هم فيه من عادات الجاهلية فليس لهم من الإسلام شيء وإن سموا مسلمين وجاهدوا معهم ، وفتحوا بلاداً وقاتلوا المشركين.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة : ١٠٠-١٠٢]

فما انتصر الإسلام ، ولا دخل الناس في دين الله أفواجاً إلا بفضل المؤمنين حقاً من العرب وغيرهم من سائر الأمصار ، وما بنى الحضارة الإسلامية إلا المؤمنون المخلصون الذين أطاعوا الله ورسوله وتطهروا من كل ما يخالفه هدي الإسلام من عادات وتقاليد وعصبية

---

(١)" ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي.

وطبائع . ولقد أمر الله تعالى في غير موضع بضرورة التمسك بدين الله.

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٠٣]

وبغير التمسك بدين الله الحق فلا وحدة ولا قوة ولا نصر إنما الفرقة والضعف والهزيمة ، وهذا ما حدث لأمة الإسلام عندما تخلَّت عن الإسلام ، واتبعت شهواتها ، وأحيت عصبيتها .

إن عز المسلم وفخره هو الإسلام فمن استمسك بالإسلام الحق ، وبتعاليم الدين الحنيف فقد استمسك بالعروة والوثقى لا انفصام لها .

أما أولئك الذين يتبعون عادات آبائهم ، ويغلِّبون طبعهم الجاهلي على صبغة الإسلام ، بل يصبغون الإسلام بطبعهم الجاهلي يكرِّسون حكم الفرد ، والتخلف ، والظلم .

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨ – ٣٠]

***

الإسلام والعروبة

هل الإسلام خصوصية عربية ؟

الإسلام ، كدين ، ومن حيث أصوله الاعتقاديَّة ، ليس " خصوصيَّة عربيَّة " حتى يكون قسمة من قسمات العرب القوميَّة ، وإنما هو من هذا الجانب ، وفي هذه الأصول – علاوة على كونه وضعاً إلهيّاً وليس إفرازاً بشريّاً – ذو قسمة عالميَّة وإنسانيَّة ، وذو طابع عام يتعدَّى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات .. إنه في مجاله كالقوانين العامة التي – لعلميتها – تتعدى بصلاحياتها وتوجهها كل ما علي الأرض من حدود وفواصل وتقسيمات وسدود .

والإسلام الدين رغم عالميَّته التي تتعدى وتتخطَّى حدود القوميات والحضارات والأجناس . نجده يطلب من أتباعه إن هم أرادوا فقه معجزته ووعي آيته الكبرى أن يتعرَّبوا ؟! وتلك ولا شك خصوصيَّة عربيَّة للإسلام لا ريب فيها ولا إبهام رغم " عالميَّة الدين " ! (١)

من هو العربي في مفهوم الإسلام ؟

وفي مصر قدَّم الإسلام الحضارة مفهوماً للعروبة يتجاوز عصبيَّة الجاهليَّة ويرفضها . ويتجاوز النعرات العرقيَّة وينهي عنها ويضع محل

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص١٠، ١١ .

كل ذلك مفهوماً حضاريّاً ، يعتمد الفكر واللغة والعلائق القوميَّة بين أبناء هذه الجماعة البشريَّة معياراً لمن هو العربي .

فيخطب الرسول في الناس قائلاً : " يا أيها الناس إن الربَّ واحد ، والأب واحد ، وليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أمٍّ ، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربي. "

وروي في مناسبة هذا الحديث أن قيساً بن مطاطية جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ قائماً يجر ردائه حتى دخل المسجد ثم نودي: أن الصلاة جامعة ، وقال: (ذَكَر هذا الحديث) ، فقام معاذ بن جبل وهو آخذ بتلبيبه ، قال : فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه إلى النار ، فكان قيس ممن ارتدَّ في الردة ، فقتل .(رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق)

وهذا الحديث – ضعيف السند صحيح المعنى– يسحب بساط العنصريَّة المقيتة من العرب المُسْتَعْرِبة وينفي استئثارهم باللسان العربي دون العرب المُسْتَعْجَمَة ، وينزع نبرة الاستعلاء ونزعة العنصريَّة التي كانت لدى بعض العرب – كالأمويين ومن جاراهم – في التفاخر بأنهم أفضل البشر لأنهم هم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول آخر الزمان من بينهم .

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الحجرات : ١٧]

عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلتك العرب فقال رسول الله ﷺ إن فقههم قليل وان الشيطان ينطق على ألسنتهم ونزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾
[رواه النسائي]

اليهود والنزعة العنصرية

ولقد أسلمت هذه النزعة العنصريَّة المقيتة اليهود إلى الادعاء أنهم شعب الله المختار وتحلَّلوا من العهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب " الأميين " .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

فمن اليهود من امتنع عن الوفاء بالعهود ، وجحدوا الأمانات والحقوق؛ بسبب زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة في استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملتهم .

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم ، كما يحل لهم أخذ ما له بأي وسيلة . وهذا الخلق الذميم معرق في اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم . [١]

العرب والمفاخرة بالعروبة والسيادة

وبعض العرب في العصر الأموي فاخروا بعروبتهم وسيادتهم على غيرهم من المسلمين من غير العرب وقسَّموا المجتمع إلى طبقات ثلاث

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٦٤٧ .

وجعلوا أنفسهم على رأس هذه الطبقات وجعلوا العرب المستعجمين موالياً لهم ثم جعلوا العبيد – وإن كانوا مسلمين – في الطبقة الدنيا .

أساس المفاضلة في مفهوم الإسلام

وهذا التقسيم لم يقل به القرآن الكريم ولم يعلمه رسوله الأمين إنما القرآن الكريم يقرر .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]

يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة قال : " يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبَيَّةَ الجاهلية – أي تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، الناس رجلان ، رجل يرتقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله . إن الله – تعالى – يقول : ﴿يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ..﴾ ثم قال : " أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبها على تساويهم في البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته. " [١]

عن أبي هريرةَ أنه قَالَ : قِيلَ: يَا رسولَ الله ، مَنْ أكرمُ النَّاس ؟ قَالَ : أَتْقَاهُمْ . فقالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسأَلُكَ ، قَالَ : فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ نَبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ قالوا : لَيْسَ عن هَذَا نسأَلُكَ ، قَالَ : فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلوني ؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ إِذَا فقُهُوا " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

و" فَقُهُوا " أيْ عَلِمُوا أحْكَامَ الشَّرْعِ وعَمَلُوا بِهَا . وكذلك خياركم قبل الإسلام من كل الشعوب خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

فعن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: " انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلاَ أَسْوَدَ إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى " [رواه أحمد وحسنه الألباني]

رغم أن أبا ذر عربي ، والسود والحمر – غالباً – ليسوا عرباً .

" " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ فَخْرِهِمْ بِآبَائِهِمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ النَّتَنَ بِأَنْفِهَا " [صحيح رواه النسائي وأبو داود]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ لَيْسَ لأَحَدٍ فَضْلٌ على أَحَدٍ إِلاَّ بِالدِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلاً جَبَانًا." [السلسلة الصحيحة للألباني]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٥

إن اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، تنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿إن الله عليم خبير﴾ .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : إلوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام !

موقف الإسلام من العصبية الجاهلية

وقد حارب الإسلام هذه العصبيَّة الجاهليَّة في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانيَّ العالميَّ في ظل راية واحدة : راية الله .

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية : " دعوها فإنها مُنْتِنَة " .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ . المجتمع الإنسانيُّ العالميُّ ، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة . . راية الله . (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟

وابن الأكرمين – العرب – ليس كل من لبس الجلباب والغترة وسكن جزيرة العرب فليست العربيَّة بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربيَّة فهو عربيٌّ لا يتميز عليه غيره إلا بالتقوى وحسن العمل والخُلُق وتعمير الأرض .

العربية ليست عرقاً ولا نسباً

فالعربيَّة ليست عرقاً ونسباً إنما هي لغة ولسان فمن تكلَّم العربيَّة فهو عربيٌّ وإن لم يكن أصله عربي وإسماعيل أبو العرب كان أبواه أعجميين ولم يكونا عربيين .

ويُقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المُسْتَعْرِبة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المُسْتَعْجَمَة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلاميَّة . (٢)

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٧ ص ٣ .
(٢) راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ .

ويقول الجاحظ " إن العرب قد جعلت من إسماعيل وهو ابن أعجمين – إبراهيم وهاجر– عربيّاً لأن الله فتق لهاته بالعربيَّة المبينة ، ثم فطره على الفصاحة (١)

وعلى ذلك فسكان العراق والشام ومصر وشمال إفريقيا وكل من يتكلم العربيَّة هم عرب يجمعون بين فضائل أصولهم العرقيَّة وحضاراتهم الإنسانيَّة وفضائل الإسلام التي لا يجنيها إلا من تعرَّب لسانه ليفهم الدين في نصوصه الأصليَّة وليس من المترجمات ولقد أفسدت المترجمات الديانات السابقة وكانت سبباً من السباب تحريفها والخروج بها عن هديها فالترجمة خيانة كما يقول المترجمون أنفسهم لذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التحريف كما حفظ العرب المؤمنون اللغة العربيَّة وآدابها من الفساد عن طريق تأليف معاجم اللغة، وعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم اللغة) وحفظوا الحديث الشريف ونقُّوه مما علق به من موضوع وضعيف عن طريق علوم الجرح والتعديل والرجال.

العرب المستعجمة وصناعة الحضارة الإسلامية

لقد ساهم بالجهد الأكبر –ويا للعجيب – في حفظ اللغة العربيَّة وآدابها ونشأة علومها وحفظ الحديث الشريف ونشأة علومه مسلمو العرب المُسْتَعْجَمَة وليس العرب المُسْتَعْرِبَة وهذا يدل على أن الحفاظ على اللغة العربيَّة صيانة للإسلام وليس عصبيَّة جاهليَّة كالتي وقع فيها بعض من تفاخر بعروبته أو بقرشيته .

يقول ابن خلدون : " إن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضريَّة وبعد عنها العرب وعن سوقها

(١) نقلاً عن د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص٢٣ .

والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربي وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. [١]

ومن تعلَّم العربيَّة من غير العرب تعلَّم العربيَّة الإسلاميَّة التي تحمل الثقافة الإسلاميَّة وتمجد قيمه وتنفِّر من عادات الجاهليَّة المذمومة فاللغة العربيَّة التي تعلمتها الشعوب المُسْتَعْجَمَة لغة الإسلام ذات القيم الدينيَّة والرشاد وليست لغة الجاهليَّة التي ترسخ قيم الجاهلية الأولى ، تعلَّموا لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف ولغة الخلفاء الراشدين وفقهاء الإسلام وعلمائهم ؛ لذا لا عجب أن يقول سيدنا محمد ﷺ على سلمان الفارسي " سلمان منَّا أهل البيت " [٢] ومن المعلوم أن سلمان فارسيٌّ غير عربي وفي هذا بيان أن رابطة الدين بما تشتمل عليه من قيم إلهيَّة عالميَّة خالدة أهم من الرابطة العرقيَّة المحليَّة العنصريَّة الضيقة .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥٤٤ .
(٢) هذا الحديث في رفعه إلى النبي ضعف ، والصحيح وقفه على علي بن أبي طالب .

وكـان مـن الطبيعـي أن نجـد فهـم العـرب المُـسْتَعْجَمَة – أصـحاب الحضارات العريقـة – الإسـلام فهماً يختلـف عـن فهم البـدوي ، فإسـلام العرب المُسْتَعْجَمَة إسلاماً حضاريّاً سمحاً وسطيّاً راقياً بعكس الإسـلام البدويِّ المتشدِّد المتطرِّف الشكليِّ العنصريِّ .

الأفغاني ومفهوم الجامعة الإسلامية

ومفهوم الجامعة الإسـلامية عند الأفغانـي : " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكنـي أرجـو أن يكـون سلطان جميعهم القـرآن الكـريم ووجهـة وحـدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياتـه بحياتـه ، وبقاءه ببقائـه . ألا أن هذا بعد كونـه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات"

وفي موطن آخر يتحدث الأفغاني عن وحدة النوع الإنساني الذي يتخذ الكـرة الأرضـيَّة لـه وطنـاً ثـم يـضيف : " إن اخـتلاف الأقـاليم قد أثمـر اختلاف الخواص التي تتميز بها الشعوب ، وهذه الخواص هي : اللغة، والأخـلاق ، والعوائـد ، والإقلـيم ، (الأرض – الـوطن – البيئـة) وهـي نابعـة من طبيعـة الإقليم الـذي تعيش فيـه الجماعـة البشريَّة ثـم يـضيف إليهـا عامـل خـارجي هـو الـدين فوحـدة النـوع الإنـساني تعـود فتتـوزع إلـى أقـوام وشـعوب بفعـل هـذه الخـواص والقـسمات " وتحـت هـذه المـؤثرات تحصل للأقوام ميزة وتتأصل فيهم محبة (١) البقاء على المألوف والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة " .

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص٤٣ .

فهناك إذن – عند الأفغاني – دوائر ومستويات فالنوع الأول الإنسانيٌّ واحد ، ولكن الخواص القوميَّة توزعه إلى شعوب وقوميات ، وبين الملَّة الإسلاميَّة روابط مصلحة ووشائج اعتقاد لكنها لا ترقى إلى الحد الذي تجعل الممكن والأصلح بالنسبة لهم هو الوحدة الاندماجية للدولة ، الأمر الذي يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للرابطة القومية ودولتها..

... فالأفغاني قد أردك أن الدولة العثمانية قد فشلت في تطوير الأقاليم العربيَّة التي حكمتها لأن الأتراك كقوم وجنس – كانت تَغْلُب عليهم " البداوة " وخشونة العسكر – لا يحسنون التعمير ، وهم ليسوا كالعرب الذين أجادوا كقوم وجنس النهوض بهذه المهمة فيما فتحوا من أقاليم بل وأدرك أن هؤلاء العثمانيين قد غدوا عقبة أمام هذه الأقاليم وعمرانها " فالدولة العثمانية بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها " (١)

عروبة مصر

وكما أن الروافد النهر تعمِّق مجراه وتزيد غزارة مياهه وقوة جريانه لكنها لا تغير مساره ولا تحرفه عنه مصبه فكذلك اختلاط غير المصريين بالمصريين (بالزواج والمعاشرة والاختلاط) قوَّى العنصر المصري وغزَّاه ولم يغيِّر طبيعته وذلك مثل عروبة مصر ثقافيّاً ، أما إسلام مصر فقد ردَّها إلى مجراها الطبيعي الذي فطرت عليه واقتلع الحشائش الضارة التي كانت تعيق الحركة المياه وبعض الجراثيم والميكروبات التي كانت تشوب صفائه وتغير من طعمه ولونه ورائحته

---

(١) د. محمد عمارة " الإسلام والعروبة " دار الشروق ص ٤٤ ، ٤٥ .

لذا أصبحت الشعوب المُستَعْجَمَة أنقى عنصراً باختلاطها بالجنس العرب فمن المعروف أن التزاوج من غير الأقارب يقوى النسل بعكس زواج الأقارب .

وهذا يؤكده ما جاء في الأثر " لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً"(١) " ضاوياً " أي هزيلاً ضعيفاً والذي يقوي هذا الأثر ما ذكره العلم الحديث من أن زواج الغرباء يقوي النسل بعكس زواج الأقارب .

فالاغتراب في الزواج فيه مصلحةٌ؛ حيث إنه يقوِّي النسل ويوسع الروابط الأسريَّة والصِّلات بين الناس، والاغتراب يقوِّي النَّسل، وهو ما أكَّده علماء الهندسة الوراثية؛ لذلك حثَّنا علماؤنا وفقهاؤنا عليه؛ جاء في "مغني المحتاج" في فقه الشافعية: أن "الشافعي نصَّ على أنه يستحبُّ للرجل ألا يتزوَّج من عشيرته، وعلَّله الزنجاني بأنَّ من مقاصد النكاح اتِّصال القبائل؛ لأجل التعاضد والمعاونة باجتماع الكلمة ."

ويُلاحَظ أننا مطالبون بتقوية النسل والنشء الجديد، فقد جاء في كتاب "المغني" لابن قدامة الحنبلي: "ويختار الأجنبية؛ فإنَّ ولدها أنجب، ولهذا يقال: (اغتربوا لا تضووا)؛ يعني: أنكحوا الغرائب؛ كيلا تضعُف أولادكم؛ ولأنَّه لا تؤمَن العداوة في النكاح وإفضاؤه إلى الطلاق، فإذا كان في قرابةٍ أفضى إلى قطيعة الرحم المأمور بصِلَتِها"، وهذا القول يصلح أيضًا تعليلاً مقبولاً لترجيح نكاح البعيدات.

***

(١) هذا الأثر لا يصح مرفوعاً إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا النوابغ كما قال ابن الصلاح .

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " "

٨- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

٩- العرب والإسلام . دار زهور المعرفة والبركة

١٠- حضارة مصر الإسلامية . دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو . دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " " " " " " " " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي . دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " " " " " " " " " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " " " " " " " " ""

٥- اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية . دار نوبل للنشر والتوزيع

٤- حضارة مصر الإسلامية . " " " " " " " " " " " "

٥- عقيدة المصريين القدماء بين الحقيقة والافتراء. " " " " " " " " " " " "

٦- النهضة المصرية في العصر الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " " " "

٧- مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " " " " " "

٨- أحلام مواطن متفائل . " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكايات جنود في سيناء . " " " " " " " " " " " " " "

كتب عامة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .

دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

٣- محاضرات مدرسية (الجزء الأول) . دار زهور المعرفة والبركة

٤- مشكلات من مدرسة بنات . " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " " "

– قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .

التليفون المحمول: 01226406489

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الشعر ديوان العرب

الموضـوع الصفحة

الإسلام والعروبة

***